عودة إلى الإسلام



كتاب الجمهورية الديني

الدكتور أحمد الشرباصي

اهداءات ٢٠٠١

أ.د. محمد دياب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

عودة إلى الإسلام

تأليف

الدكتور أحمد الشرباصي

الأستاذ بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، هو ولى النعمة ، ومصدر الرحمة : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » .
وأصلى وأسلم على جميع أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

وأستفتح بالذى هو خير : « ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير » .

شعاع من كتاب الله

« إن الذى فرض عليك القرآن لرادُّك إلى معاد ، قل ربى أعلم من جاء بالهدى ، ومن هو فى ضلال مبين ، وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ، فلا تكونَنَّ ظهيراً للكافرين ، ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أُنزلت إليك ، وادع إلى ربك ، ولا تكونَنَّ من المشركين ، ولا تدع مع الله إلٰها آخر ، لا إله إلا هو ، كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون » .

« سورة القصص »

تصـــدير

هذا كتاب يسعى الى قرائه ، يحمل عنوان : ((عودة الى الاسلام)) ، وتنهض دعائمه على ثلاثة ابواب ، البـاب الاول بعنوان : ((أسس التربية الاسلامية)) ، والبـــاب الثانى بعنوان : ((الدين وشباب الجامعات)) ، والباب الثالث بعنوان : ((الدعوة الى الاسلام)) ، فلماذا صارت هذه الابواب مضمونا لهذا العنوان العام ؟

ان الاسلام الحنيف يقول فيه رب العـــزة : ((قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبـــع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهـــديهم الى صراط مستقيم)) . فالاســـــلام ــ اذن ــ نور وهداية ، وباب الى الرضوان والســـلام ، ومنهج للخير والسعادة فى الحيـــاة ، ورائد الى الطريق القويم ، فمن واجب كل عاقل أن يفىء اليه ليستضىء به ويستمد منه .

والاسلام الحنيف يقدم منهجا فى التربية والاعـداد ، وبناء الفرد وبنـاء الجماعة ، ولذلك كان من حقنـا ومن واجبنا ، أن نتعرف الى ((أسس التربية الاسلامية)) التى تتكفل ــ عند الاخلاص فى تطبيقها ــ باعداد المواطن العـاقل المتدثر بالعلم والايمان ، المتحصن بالاخـــلاق وفضـــائل الاعمال .

والشباب هم عدة الامة ، وأملها فى آمالها وجلائلها ، وصفوة الشباب فى الامة هم طـــلاب جامعاتها ومعاهدهـــا

على مستوى رفيع ، ولا يمكننا أن نجنى الثمرات المأمولة من هؤلاء الشباب الا اذا سلحناهم بالدين مع العلم ، وبالاخلاص مع المعرفة ، وبالروحانيات مع الماديات ، ومن هنا كان من حقنا ومن واجبنا أن نتحدث عن « الدين وشباب الجامعات » .

وهذا الاسلام الحنيف الذى نؤمن به ، وندين الله عليه ، ليس دعوة اقليمية أو عنصرية ، بل هو دعوة انسانية ، ينبغى ـ مع استضاءتنا بها ـ أن نعاون غيرنا على التعرف اليها ، والاهتداء بها ، ومن هنا كان من حقنا ومن واجبنا أن نتحدث عن « الدعوة الى الاسلام » .

والاسلام أبعد الاديان عن معانى التعصب والطائفية ، لانه الدين الذى يقرر فى صلب دستوره الاول ـ وهو القرآن الكريم ـ هذا المبدأ الجليل النبيل : « لا اكراه فى الدين » . ويقول أيضا : « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » . ويقول : «لكم دينكم ولى دين» . ويقول : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ؟ . ويعد القرآن الاكراه فى الدين فتنة ، ويقول : « والفتنة أكبر من القتل » .

فاذا تحدثنا عن الدعوة الى الاسلام والتبشير به ، كان مفهوم هذا أن الكلمة الطيبة الحكيمة اللينة ـ مكتوبة كانت أو مسموعة ـ هى طريق هذه الدعوة . والله جل جلاله يقول : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » .

واذا قلنا : « عودة الى الاسلام » ، فليس معنى

هذا اننا خرجنا عليه ـ معاذ الله ـ ونريد الرجوع اليه ، فما زلنا منتسبين الى الاسلام ، محسوبين عليه ، ولكن عودتنا الى الاسلام يراد بها عودة الحائر فى الحيـــاة الى الرائد الذى لا يضلل ، والقائد الذى لا يخون ، وصـــدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « ان الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعا ما غششتكم ، والله الذى لا اله الا هو انى لرسول الله اليكم خاصة ، والى الناس عامة ، والله الذى لا اله الا هو لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تسيـــتيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملـــون ، ولتجزون بالاحسان احسانا ، وبالسوء سوءا ، وانها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا » .

لابد لنا من رجعة الى رحاب هذا الهـــــدى الالهى المجيد ، لنستمد منه ما يرشدنا ويسدد خطانا على طريق كفاحنا ، لبناء مجتمع عاقل فاضل ، عامل مناضل ، نظيف شريف . ومن حسن الحظ أن هناك أصـــواتا كثيرة تتردد الان فى جنبات الوادى ، تطالب بالعودة الى هدى السماء ، لتستمد منه أسس تشريعهـــا ، وقواعد تقنينها ، وانهـــا لاصوات مباركة جديرة بالاستجابة والتأييد .

« يا أيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ، فان تنــازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ، ان كنتم تؤمنـــــون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

وعلى الله قصد السبيل .

أبو حــازم
أحمد الشرباصى

أسس التربية الإسلامية

أسس التربية الاسلامية

معنى التربية

هناك من يقول ان التربية تعـديل فى النمو الفطرى ، ومن يقول : ان التربية صناعة لانتاج المواطنين الصـالحين ، ومن يقول : ان التربية عملية تجعل عيون الفرد تتفتح ، وشخصيته تنمو ، والناحية الاجتماعية من حياته تقوى ، حتى يصير عاملا فعالا فى حياة الجماعة التى ينتمى اليهـا ، سواء أكانت هذه الجماعة كبيرة أم صغيرة .

ولو أننا عدنا الى لغتنا ـ لغة العرب ـ لوجدنا أن كلمة « التربية » فى أصل معناها تدل على الزيادة والنمو والعلو ، تقول العرب : ربا الشىء ، أى زاد ، والربوة هى المكـان المرتفع ، وأربت الحنطة زكت ، وتقول : ربيته اذا غذوته . وفى لغتنا كلمة أخرى بمعنى التربية هى « التربيب » ومن مادتها جاءت كلمة « الربيبة » بمعنى الحاضنة ، لأنهـا

تتكفل بشأن من تحضنه ، ومن المادة أيضا « ربة الدار » التى تتعهدها ، وكلمة « الرب » بمعنى القيم والمصلح ، والعرب تقول : رب الشىء أصلحه ، ورب الأب ولده أى رباه ، والله تعالى هو الرب ، لأنه مصلح شئون خلقه .

ومن هنا نلحظ فى مادة التربية ــ أو التربيب ــ معنيين أساسيين هما الزيادة والاصلاح أى الاصـــلاح للمــوجود ، والاضافة اليه ، وهذان المعنيان نلحظهما بصفة عامة عنـــد استعراضنا لتاريخ التربية عند العرب .

واذا كان هناك اليوم من يفرق بين التعليم والتربية بان يجعل عماد التعـليم قائما على الحفـظ وشحن الـذهن بالمعلومات ، ويجعل عماد التربية قائما على التدريب والتهذيب فان مفهوم العلم عند البصراء من رجال الأمة العربية يضـم معنىَ التأثر والتهذب بما يعلمه الانسان ، وفى القـــرآن المجيد : « انما يخشى الله من عباده العلماء » . ويقول ابن مسعود : « ليس العلم بكثرة الحديث ، ولكن العـــلم الخشية » ويقول ابن عبدون أحد رجال التربية الاسلامية : « التعليم صناعة تحتاج الى معرفة ودربة ولطف فانه كالرياضة للمهر الصعب الذى يحتاج الى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم » .

ونحن نفهم اليوم أن الغرض من التربية هو الاعـــداد للحياة الفاضلة ، بتكوين العقل السليم فى الجسم السليم ، مع بناء الشخصية على أسس متينة من الأخلاق الكريمة ، وهذا

المفهوم يلوح لنا خلال التاريخ الطويل لأمتنا ، وان اختلف الأخذ به والالتزام له قوة وضعفا ، باختلاف الظروف والأحوال .

ومادمنا نؤمن بأن الأمة الكريمة على نفسها ، العزيزة فى حياتها ، لا تقطع صلتها بماضيها ، وبخاصة ما ضيها الذى يتضمن أمورا تتصل بقيمها ومثلها التى تعتز بها وتركن اليها ، فلنعد الى هذا الماضى نستعرض فيه الأسس التاريخية التى نهضت عليها التربية عند أمتنا العربية .

فى عصر الجاهلية

هذا هو عصر الجاهلية فى تاريخ العرب .

اننا مهما اختلفنا فى تحديد القيمة العلمية والحضارية للأمة العربية فى العصر الجاهلى ، فلن نستطيع أن ننكر ما كان لها من عناية بالتربية ، على حد مفهومها الخاص بها حينئذ .

وكانت البيئة العربية فى الجاهلية ذات تأثير كبير فى توجيه التربية الى ما يوائم هذه الحياة ، لقد كانت الحياة العربية تنبسط فى سذاجة وسهولة على رمال الصحراء الواسعة المتشابهة المسالك والأطراف ، المنطلقة الهواء ، المكشوفة السماء ، القليلة النبات والماء ، فنشأت بينهم

المعارف المتعلقة بالنجوم والرياح . والقيافة والعيافة وتتبع الأثر ، ومنابع الماء ومواطن الكلأ .

وكانت الحياة قاسية عليهم ، فدعاهم ذلك الى التمدح بالكرم والشجاعة وحماية الجار ، والدفاع عن الأهل والعشيرة ، واجابة الصريخ ظالما كان أو مظلوما ، وكانوا يعملون على تنشئة أولادهم فى ظلال هذه الصفات .

وكانت « الكلمة » ذات تأثير عميق فيهم ، سواء أكانت مادحة أو قادحة ، ولذلك عنوا بالشعر ، وتبادلوا التهنئة عندما ينبغ فيهم شاعر ... وهكذا .

وفى ايجاز : كانوا فى تربيتهم يريدون من ناشئتهم أن يكونوا قادرين على مواجهة الحياة الخشنة فى البادية ، وأن يكونوا نافعين لأهليهم ، حربا لأعدائهم ، لا ينامون على ثأرهم ، فنحوا فى تربية أولادهم هذا المنحى ، ولم يسبلموا فى ذلك من مظالم أو مآثم ، ولا من انحراف أو اعتساف .

وقد نستطيع أن نقول أن الأساس فى التربية عند أهل الجاهلية هو مواجهة الحياة ، ومحاولة التغلب على متاعبها ، والأخذ بنصيب من متاعها ، ومع ذلك كان هناك من يدعو الى اثارة الشعور ، وتحريك القلب ، وايقاظ العقل عن طريق المشاهدة والملاحظة والتدبر ، فهذا مثلا كعب بن لؤى ــ الجد السابع للنبى عليه الصلاة والسلام ــ يقول فى مطلع خطبة له : « اسمعوا وعوا ، وتعلموا تعلموا ، وتفهموا تفهموا ، ليل

ساج ، ونهار ضاج ، والأرض مهاد ، والجبـــال أوتاد ، والأولون كالآخرين .. » الخ .

وهذا قس بن ساعدة الايادى يقول أيضا : « ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحـــار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة ، ان فى السماء لخبرا ، وان فى الأرض لعبرا » . ثم يوجه قومه الي لون من التفكير الدينى ، فيقول : « يقسم قس بالله قسما لا اثم فيه ، ان لله دينا هو أرضى له ، وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه ، انكم لتأتون منكرا » . ثم يسوق أبيـــاته المشهورة ، ومطلعها :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

وبرغم مادية الحياة فى الجاهلية ، ووثنية العقيـدة ، وانطلاق الحرية بلا حدود ، والعب من متع الحيـــاة قـدر المستطاع ، كان هناك من يحثهم على مكارم الأخلاق ، كالذى جاء على لسان الحارث بن كعب فى وصيته التربوية الأخلاقية: « عمل السوء يزيل النعماء ، وقطيعة الرحم تورث الهـم ، وانتهاك الحرمة يزيل النعمة ، وعقوق الوالدين يعقب النكد . ويخرب البلد ، ويمحق العدد ، والاسراف فى النصيحة هو الفضيحة ، والحقد يمنع الرفد ، ولزوم الخطيئة يعقب البلية وسوء الدعة يقطع أسباب المنفعة ، والضغائن تدعـــو الى التباين » .

وكالذى جاء فى وصية ذى الأصبع العدوانى : « ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ ، فان لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك من مسألة أحد شيئا ، فبذلك يتم سؤددك » .

وأسهم الشعر الجاهلى بنصيبه أحيانا فى توجيه التربية توجيها اخلاقيا ، كالذى كان من زهير حين قال :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وان خالها تخفى على الناس تعلم

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم
ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر
ليوم الحساب ، أو يعجل فينقم

وقد شاع اصطلاح بتقسيم التربية الى أقسام ثلاثة : التربية الجسمية ، والتربية العقلية ، والتربية الأخلاقية ، ونلاحظ أن أهل الجاهلية أعطوا هذه الأقسام أقساطا متفاوتة من العناية ، ولعل التربية الجسمية قد حظيت بالنصيب الأوفى ، وحظيت التربية الأخلاقية ــ كما نفهمها الآن ــ بالنصيب الأدنى .

ولسنا في مقام المحاسبة أو المؤاخذة ، ولكنا في مقام الرصد لواقع كان ، مع محاولة التعليل له ، أو بيان الداعي اليه ، ومما ينبغي التسليم به أن ظروف الحياة الجاهلية هي التي دعت الى توجيه التربية هذه الوجهة التي تعتمد في جل أمرها على مواجهة الحياة ، ومحاولة التغلب على شدتها ، مع الاستمتاع بمادياتها ، دون التزام بوحدة اجتماعية أو قومية أو أخلاقية .

وجـاء الاسلام

ثم أشرقت شمس الاسلام .

والعرب في الاسلام وبالاسلام قد تغيروا في أحوالهم المادية والاجتماعية والفكرية والتربوية ، وكأنما قد خلقـوا بالاسلام خلقا جديدا :

كان هناك أفراد ، فأصبحت هنا أمة .

وكان هناك قبائل متحاربة ، فأصبحت هنا دولة منتظمة .

وكان هناك حرية منطلقة ، فصارت هنا حرية محكومة بقانون السماء .

وكان هناك دنيا ، فأصبح هنا دنيا وأخرى .

وكان هناك مادة واستمتاع ، فأصبح هنا مادة وروح .

وكان هناك الانسان الذى تصنعه البادية بأوهامها وأخيلتها وأساطيرها ومزاعمها ومظالمها ، فأصبح هنا الانسان الذى تصنعه يد الرحمن .

وكانت هناك التربة العربية الخصبة المطمورة المنطوية على خصائلها وطاقاتها ، فجاء الاسلام الذى حرث هذه الأرض ونقاها ، ونفخ فيها من روحه فاذا هى تنبت وتزهر وتثمر ، حتى جاز لنا أن نقول منذ عهد بعيد : ان العروبة وعاء الاسلام وان الاسلام روح العروبة (١) .

والعرب فى الاسلام وبالاسلام صارت لهم عقيدة ورسالة واتسعت لهم مدنية وحضارة ، وانبسطوا فى أرجاء المعمورة هنا وهناك ، واتصلوا أو امتزجوا بهؤلاء من شعوب الأرض وهؤلاء ، وأعطوا وأخذوا ، وأثروا وتأثروا ، فكان من الطبيعى أن تتكيف فيهم أسس التربية تبعا لما جد بينهم من قيم وأوضاع .

وعلى الرغم من أن عقيدة « التوحيد » التى جاء بها الاسلام كانت مغايرة لما ساد المجتمع العربى وبقية المجتمعات من معتقدات ، فان المجتمع العربى الاسلامى لم يتردد فى الأخذ عن غيره من مجتمعات ، فى مجالات العلم والمعرفة والفن والثقافة وشئون الحياة الأخرى ، وشجعه على ذلك الأخذ

---

(١) انظر كتابى « وسائل تقدم المسلمين » الفصل التاسع بعنوان « بين العروبة والاسلام » ص ١١ ــ ١٣٠ . طبعة سنة ١٩٥٩ م .

العريض الواسع أن الدعوة الاسلامية التى سيطرت عليه قد دفعته الى ذلك الأخذ دفعا ، حيث قال القرآن الكريم : « وقل رب زدنى علما » • وقال : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ، ويقول الحديث : « اطلبوا العلم ولو بالصين » ويقول : « الحكمة ضالة المؤمن فحيثما وجدها فهو أحق بها » •

ولم يقتصر المجتمع العربى الاسلامى فى هذا المجال على النقل أو التقليد أو المتابعة ، بل أخذ وهضم وانتفع ، وأعطى فأفاد وأمتع ، وتفاعل فى فكره وثقافته مع بيئات متعددة تفاعلا كون له هذا المزيج الفكرى الثقافى المتعدد العناصر ، واذا كان قد صحب هذا التفاعل نصيب من الأضرار أو الأخطار فان هذا النصيب لم يستطع القضاء على المكاسب الكبرى التى حققها المجتمع العربى الاسلامى بهذا التفاعل المتعدد الجوانب •

القرآن والتربية

مما لاشك فيه أن القرآن الكريم كان الأساس الأول للتربية والثقافة فى المجتمع العربى الاسلامى ، ولا نبعد عن الحقيقة اذا قلنا ان أكثر من ثلاثة أرباع المكتبة العربية

قد نشأت ونهضت بسبب القرآن ، ودارت حول القرآن ، تخدمه وتستمد منه وتتأثر به ، وصار القرآن هو المثل الأعلى أمام المسلمين ، فيما يقرره من عقائد وعبادات ، ومعاملات وأخلاق ، وقصص وحكم وأمثال ، ولا غرو فالله جل جلاله يقول : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم من خطبة له فى مطلع الدعوة : « ان أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه فى قلبه ، وأدخله فى الاسلام بعد الكفر ، واختاره على ماسواه من أحاديث الناس ، انه أصدق الحديث وأبلغه » .

ويقول الامام على : « من فهم القرآن فسر به جمل العلم » .

ولقد نزل القرآن الكريم أساسا للاسلام ، وكان لابد للقرآن أن يقرأه الناس ، فجاءت القراءة ، وكان لابد للقرآن أن يكتب ليظل محفوظا فى السطور ، فجاءت الكتابة ، وكان لا بد أن يحفظه حفاظه ، فجاء التحصيل له فى الصدور كما وعته السطور ، وكان لا بد للقرآن أن يفهمه الفاهمون ، ومن هنا نشأت علوم كثيرة ، عملت ــ بطريق مباشر وغير مباشر ــ فى خدمة القرآن من جهة ، وفى تكوين دعائم للثقافة العربية الاسلامية من جهة أخرى (١)

---

(١) انظر كتابى « محاضرات الثلاثاء » ، ص ١٠ طبعة سنة ١٩٥٢ . مطبعة دار الكتاب العربى.

واذا كان القرآن كتاب عقيدة ودين ، فانه في الوقت نفسه كتاب تربية وعلم • وما أوثق الصلة بين الدين والتربية فالدين تأديب وتهذيب ، والتربية تدريب واصلاح • وميزة القرآن الكبرى فى هذا المجال أنه ألقى على التربية ثوبا الهيا قدسيا ، فصارت جزءا من الدين والعبادة ، ولأمر ما بدأ كتاب الله بكلمة « اقرأ » والقراءة باب العلم والتربية • وقالت الآية الأولى نزولا من القرآن : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » وكلمة « ربك » ذات صلة قوية بالتربية ، ومادة « الرب » قد تكررت فى كتاب الله أكثر من ألف مرة •

وقد قال المفسرون ان الرب هو المربى الذى يسوس من يربيه ويدبر أمره ، وربوبية الله للناس تظهر بتربيته اياهم ، وهذه التربية قسمان : تربية خلقية ــ بكسر الخاء ــ بما يكون به نموهم وكمال أبدانهم وقواهم النفسية والعقلية ، وتربية شرعية تعليمية ، وهى ما يوحيه الى أفراد منهم ليكمل به فطرتهم بالعلم والعمل اذا اهتدوا به •

كما يقول بعض المفسرين عند ذكر « رب العالمين » ان حظ العبد من وصف الله بالربوبية هو أن يحمد الله تعالى ويشكره ، باستعمال نعمه التى تتربى بها القوى الجسدية والعقلية فيما خلقت لأجله ، فليحسن تربية نفسه ، وتربية من يوكل اليه تربيته من أهل وولد ، ومريد وتلميذ ،

وباستعمال نعمته بهداية الدين فى تربية نفسه الروحية والاجتماعية ، وكذلك تربية من يوكل اليه تربيتهم ٠

واذا كان العلم هو رائدنا وقائدنا الى تحقيق التربية ، فنحن نجد القرآن يحيط شأن العلم بهالة كريمة من التقدير والعناية ، فهو يقول : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ويقول : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ٠ ويقول : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » ٠ ويقول : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » ٠ ويقول : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » ٠

وجاء الحديث النبوى من وراء القرآن يؤكد مكانة العلم والعلماء ، فقال : « العلماء ورثة الأنبياء » ، وقال : « ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » ، وقال :
« من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا الى الجنة » ٠

اسس للتربية فى الاسلام

نلاحظ أن التربية فى الاسلام تقوم على أسس منها :

١ ـ العلم الصحيح العميق الواسع هو باب الخشية ، وطريق التهذيب والتربية ، ومفتاح الاستقامة ٠ يقول القرآن :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » • ويقول : « وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولو الألباب ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب » •

٢ ــ بداية التعليم والتربية من الله عز وجل ، بالفطرة ، أو الالهام ، أو الوحى ، وفى القرآن المجيد : « علم الانسان ما لم يعلم » ، « وعلمك مالم تكن تعلم » ، « فالهمها فجورها وتقواها » ، « وعلم آدم الأسماء كلها » ، « واتقوا الله ويعلمكم الله » •

٣ ــ النفس البشرية تخرج الى هذه الحياة وليس لديها رصيد له قيمة تذكر من العلم أو المعرفة ، ولكن الله تعالى هيأ أمامها وسائل التعلم والتثقيف والتربية ، يقول القرآن الكريم : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » • ويقول : « ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين » • وفى هذه الآيات وأمثالها حث على اثارة المشاعر وايقاظ الحواس ، وتحريكها لتحصيل التربية والتعليم •

٤ ــ التفكير فريضة اسلامية ، وطلب العلم واجب على كل فرد ، لأن الحديث يقول : « طلب العلم فريضة على كل

مسلم . (١) ، ولفظة « مسلم » هنا تشمل الذكر والأنثى . ومن واجب المجتمع المسلم أن يعمل على توفير مجموعة من العلماء الفقهاء تكفى لتربية وتفقيههم ، والقرآن يقول : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » .

٥ ـ الاسلام يوجه الى أن تكون التربية دينية دنيوية ، مادية روحية ، علمية عملية ، لأن الاسلام يأمر الانسان بأن يعمل لأولاه ولأخراه ، وأن يتمكن من الوسائل العلمية والتربوية والعملية ، لاسعاد نفسه فى الدارين ، يقول القرآن : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين » . والأثر الاسلامى يقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

---

(١) ذكر السيوطى فى الجامع الصغير عدة روايات لهذا الحديث لم ترد فيها لفظة « مسلمة » . وهذه الروايات هي : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، « طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب » ، « طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وان طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان فى البحر » ، « طلب العلم فريضة على كل مسلم ، والله يحب اغاثة اللهفان » ج ٢ ص ٥٤ .

ويوجه الاسلام الى القوة فى الحياة على اختلاف أنواعها سواء أكانت قوة مادية ، أم قوة معنوية ، أم قوة علمية ، أم قوة اخلاقية ، أم قوة اقتصادية ، والقرآن يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . ويقول الحديث : « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » . ولذلك يزكى الاسلام أى لون من ألوان التربية ، يؤدى الى تحقيق أى لون من ألوان هذه القوة ، كما أن الاسلام يهدف الى صيانة الجماعة المؤمنة وتحصينها ضد عوامل الضعف أو الفناء ، فيقول القرآن الكريم: « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » ، ويقول : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » .

وحين نتعمق فى دراسة التربية الاسلامية نجد أنها مزاج عجيب من الاعداد الدينى والاعداد الدنيوى ، وقد ظهـر هذا بوضوح فيما كتبه علماء الاسلام عن التربية والتعليم ، ولعل أقرب مثل على ذلك يحضر الذاكرة هو كتاب « أدب الدنيـا والدين » لأبى الحسن بن محمد الماوردى المتوفى سنة خمسين وأربعمائة للهجرة ، فان هذا الكتاب شاهد على ذلك المزاج ، حتى بعنوانه الجامع بين كلمتى الدنيا والدين .

٦ ـ يقرر الاسلام المساواة بين الناس فى حق التعليم . فالقرآن قد جاء ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، والرسول ما أرسله ربه الا ليكون كافة للناس بشيرا ونذيرا ، والناس كلهم فى نظر الاسلام من نفس واحدة ، ولذلك يقول القرآن: « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق

منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا » • ولا يقر الاسلام فى هذا المجال تفرقة بين الذكور والأناث ، ولا بين الاغنياء والفقراء ، وانما يجعل أساس التقديم والتفضيل هو التقوى والعمل الصالح ، والتقوى صيانة النفس من كل سوء يسبب غضب الله عليها ، والعمل الصالح هو كل ماحقق خيرا يرتضيه الله للفرد أو الجماعة ، وانما تتحقق التقوى والقيام بالعمل الصالح عن طريق المعرفة والتمييز وقوة الارادة والتربية القويمة • يقول القرآن : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير »

وفى سورة « عبس » أشارة واعظة ومذكرة بحق المساواة فى التعليم ، ففى هذه السورة جاء قوله تعالى : « عبس وتولى ان جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ، كلا انها تذكرة » •

٧ — من أسس التربية فى الاسلام كذلك أن يكون العلم للعمل النافع ، وألا يكون العلم للتباهى أو التفاخر أو التعالم ، وما لم يكن علمك نافعا لنفسك أو للناس ، فانه يكون عبثا يتنزه عنه العقلاء والفضلاء ، واذا كان العلم ضارا فانه يصير مذموما فى نظر الاسلام ، ولذلك كان

الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « اللهم علمنى ما ينفعنى ، وانفعنى بما علمتنى ، وزدنى علما ، والحمد لله على كل حال » . وجاء فى الحديث : « نعوذ بالله من علم لا ينفع »

ومعنى هذاأن الاسلام يهدى الى أن يكون التعليم والتربية للحياة وللخير ، وللنفع الخاص والعام ، وهو لا يضيق نطاق هذا النفع ، فيجعله خاضعا لعصبية أو قرابة أو جنس أو لون ، بل يقول الحديث : « خير الناس أنفعهم للناس » وفى التربية الاسلامية تبدو النزعة الانسانية واضحة ، ويعزز هذا أن تكريم الله للانسان جاء عاما شاملا ، فقال القرآن : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

٨ — التربية والتعليم فى ضوء الاسلام ليس لهما وقت محدد أو زمن مقيد ، لأن المعرفة بحر لا ساحل له ، ولأن العلم محيط كبير ، يفنى العمر قبل ان يستوعب الانسان كل ما فى هذا المحيط ، ولذلك نفهم من تعاليم الاسلام ان المرء يظل عالما ما طلب العلم ، فاذا ظن بنفسه أنه علم كل شىء فقد بدأ يجهل ، وأن المرء يظل يطلب العلم من المهد الى اللحد ، والحديث يقول : « لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة » . والحديث المرسل يقول : « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الاسلام فبينه وبين الأنبياء فى الجنة درجة واحدة » .

٩ ــ مهنة التربية والتعليم فى نظر الاسلام أشرف المهن وهى وظيفة الأنبياء والمرسلين • وفى القرآن الكريم : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » ، « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » •

والرسول يقول : « انما بعثت معلما » ويقول : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من جمر النعم (١) • ويقول : « العلماء ورثة الأنبياء » • ويقول الغزالى : « أدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء » • وجاء فى الحديث « ان الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا ، وانما ورثوا العلم : فمن أخذه أخذ بحظ وافر » •

١٠ ــ اذا كان هناك قدر من « الغيبيات » التى يؤمن بها المسلم ، وقدر آخر من الأمور العقلية التى يفكر فيها ويتدبرها ويحثه الاسلام على استخدام عقله لادراكها ، فان من أسس التربية الاسلامية أيضا التوجيه الى ايقاظ الحواس والمشاعر ومن هنا كثرت الآيات القرآنية التى تتحدث عن مشاهد الكون ومظاهر الطبيعة ، وتلفت الأبصار ومن ورائها البصائر الى الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم والأفلاك ، والأرض

---

(١) الابل ذات اللون الاحمر ، وكانت أعز أموال العرب •

والسماء ، والهواء والماء ، والأنهار والبحار ، والأشجار والأطيار ... الخ .

يقول القرآن هذه الآيات الكريمات :

— « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء »

— « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » .

— « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

— « ولا تقف ما ليس لك به علم ، أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

وينعى القرآن الكريم نعيا شديدا على الذين يعطلون حواسهم ، فلا ينتفعون بها فى الادراك والملاحظة والاعتبار ، فيقول :

— « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » .

- « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .

- « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

١١ ـ من أسس التربية فى الاسلام النزعة الموضوعية في البحث والتجرد عن الهوى ، والبعد عن المؤثرات فى تكوين الرأى أو تحصيل المعلومات ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » ، ويقول : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »

١٢ ـ للتجربة قيمتها فى هذا المنهج التربوى ، لأن هذا المنهج يمثل دعوة اعتقادية تطبيقية ، لا يكفى فيها التصديق القلبى ، ولا التصديق اللسانى ، بل لا بد فيها من العمل والتطبيق والممارسة ، ولذلك اقترن ذكر الايمان بالعمل الصالح فى لغة القرآن عشرات المرات ، والامام على رضى الله عنه يقول : « العقل غريزة تربيها التجارب » . ويقول : « لكل شيء صناعة ، وحسن الاختبار صناعة العقل » .

ويمجد هذا المنهج حرية التفكير واستقلال الشخصية فى البحث والاقتناع والاعتقاد ، ويستنكر التقليد والاتباع ، وهناك من مفكرى الاسلام من يرى أن ايمان المقلد غير صحيح ، وأقل ما يقوله مفكرو الاسلام فى ايمان المقلد أنه ايمان غير كامل ، ولا بد للانسان من النظر والتفكير ما دام قادرا على

ذلك . ولقد فسح القرآن نطاق الدائرة التى يجول فيها تفكير الانسان ويصول ، فقال : « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة » .

ولذلك يحمل هذا المنهج حملة شديدة على المتابعة العمياء ، والتقليد بلا وعى ، فيقول القرآن : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » . ويقول : « وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ، قالوا لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » ويقول : « ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل » .

١٣ — وكما تتجه هذه التربية الى تربية الفرد تتجه الى تربية الجماعة . فالقرآن مثلا يتجه الى الفرد ليرشده ويهديه، فيحذره عداوة الشيطان : « ان الشيطان للانسان عدو مبين » ويحذره الغرور : « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك » ويحذره الطغيان : « كلا ان الانسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، ان الى ربك الرجعى » .

ويذكره بتحمل التبعة : « وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، من اهتدى فانما يهتدى

لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليهـا ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » •

والقرآن يتجه الى الجماعة ، فيطالبها بالوحدة والتماسك : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، وبالمسئولية الجماعية ، فيقول : «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» • ويقول الرسول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » • ويعلمها روح الجماعة حتى فى الدعاء لله والرجاء منه : « اياك نعبد واياك نستعين ، أهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » • ويذكرها باشتراك أفرادها فى تحمل التبعات : « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياهـا فكأنما أحيا الناس جميعا » •

وعلمها أن الخير فى الجمع بين التفكير الفردى والتفكير الجماعى ، فقال : « قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » ، واذا كان قد قال : « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » • فقد قال أيضا : « وأمرهم شورى بينهم » ، وقال : « وشاورهم فى الأمـر » • وقال : « وتعاونوا على البر والتقوى » •

١٤ ـ اذا كان تشجيع الاسلام على طلب العلم بصـورة واسعة قد دفع العرب والمسلمين الى الاغتراف من مناهـل العلوم المختلفة ، سواء أكانت دينية أم دنيوية ، أصيلة أم

دخيلة ، عربية أم معربة ، تشتد اليها الحاجة أم تخف ، فان الاسلام قد وجه الى الاختيار والاصطفاء ، حتى يكون العلم نافعا ، وحتى تكون التربية مثمرة خيرا أو دافعة شرا ، اهتداء بقول الله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » وبقوله : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » . وبقوله : « ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » .

١٥ ـ ويأخذ هذا المنهج التربوى بمبدأ التدرج فى التعليم والتربية ، ولذلك يقول الماوردى المتوفى سنة خمسين وأربعمائة : « اعلم أن للعلوم أوائل تؤدى الى أواخرها ، ومداخل تفضى الى حقائقها ، فليبتدىء طالب العلم بأوائلها ، لينتهى الى أواخرها ، وبمداخلها ليفضى الى حقائقها ، ولايطلب الآخر قبل الأول ، ولا الحقيقة قبل المدخل ، فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة ، لأن البناء على غير أس لا يبنى ، والثمر من غير غرس لا يجنى » .

ولا يزال الدارس يتدرج ويترقى حتى ينال من المعرفة ما يستطيع ، وقد يأخذ من كل فن بطرف ، وينتقل من علم الى علم ، وقد يعكف على أحد هذه العلوم فيمهره ويتقنه ويصبح فيه اماما ، ونزعة التخصص تظهر مبكرة فى تاريخ التربية الاسلامية ، وهذا هو عمر بن الخطاب يقول فى خطبة له : « من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبى بن كعب ، ومن

أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل » .

١٦ ـ عنى العرب فى مجتمعهم الاسلامى بطريقة التلقى من المعلم أو الأستاذ أو الشيخ أو المربى أكثر من اهتمامهم بالاقتصار على الأخذ من الكتب والأوراق ، فهذا ابن جماعة يذكر أن بعض السلف يقول : « من أعظم البليـة تشييخ الصحيفة » أى جعلها شيخا ، والأخذ عن الورقة ، والمقصود هو الرجوع الى الكتاب والاعتماد عليه دون معلم . ويقول الامام الشافعى : « من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام » .

والسبب فى ذلك أن التلميذ قد يخفى عليه معنى النص ، وقد يصعب عليه فهمه وهضمه ، والمعلم يستطيع بعلمه ودربته وتجربته أن ينفخ فى النص من روح بيانه وايضاحه ما يجعله لدى المتعلم مأنوسا مفهوما . وما أكثر الشكوى فى عالمنا من قلة انتظام الطلاب فى الحضور بين أيدى أساتذتهم ، واقتصار هؤلاء الطلاب على شحن عقولهم بالمعلومات عن طريق الكتب أو المذكرات ، ليصبوها بلا فهم ولا هضم على أوراق الامتحان .

١٧ ـ وعنى العرب منذ عهد بعيد بتوجيه التلاميذ فى التربية والتعليم حسب مواهبهم وميولهم ، وسبق العرب المسلمون غيرهم الى هذا منذ صدر الاسلام ، فهذا عمر بن الخطاب يقول : « الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم » . وهذا

على بن أبى طالب يقول : « لاتقسروا أولادكم على آدابكم ، فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » .

ولقد كان السلف يكثرون من الوصية بتوجيه الناشىء فى التعليم حسب تكوينه واستعداده ، فلا يرغم على دراسة لا تقبلها طبيعته ، ولا تستريح اليها نفسه ، وكانوا يرددون قول الشاعر :

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

١٨ ــ قامت التربية الاسلامية على أساس دينى ، ولعل هذا هو بعض السر فى أنها اتخذت المسجد لها دارا ، ثم انتقلت الى الكتاب الملحق بالمسجد ، ثم انتقلت الى المدرسة التى نشأت أيضا على أساس من الدين ، ومع اتساع نطاقها ، وتعدد أماكنها ، ودخول كثير من العلوم والفنون فى نطاقها ، ظل أغلب أهلها يرون تحقيق « التقوى » هدفا أساسيا لها ،ونحن نلاحظ ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكثر من قوله : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله » ، فى صدر خطبه ، وطالما قرأنا فى الخطب والوصايا والرسائل : « أوصيك بتقوى الله » ، حتى جعل بعض الأئمة الأمر بالتقوى شيئا لازما فى خطبة الجمعة التى تعد درسا أسبوعيا تربويا فى مجتمع الاسلام .

وكان كثير من المدارس يقام فى « الربط » ، والرباط هو الموضع الذى يتجمع فيه الصالحون والمتصوفون للعبادة ، وكانوا يجعلون الرباط على الحدود ، ويقومون فيه بالتعبد

والتربية والمرابطة فى سبيل الله ، وبهذا يجمعون بين أمور ثلاثة لها وثيق ارتباط بالدين ، وهى العبادة والدعوة والجهاد .

ولا ينبغى أن نفهم من هذا أن التربية فى المجتمع الاسلامى كانت شديدة صارمة ، تعتمدعلى التخويف والتحذير والتكليف بالأوامر فحسب ، لأن الواقع التاريخى يحدثنا بأن عنصر الرياضة واللعب والتنشيط كان يلطف من صرامة هذه التربية . وهذا هو حجة الاسلام الغزالى كان علما من أعلام الدعوة الى التربية الدينية القائمة على الايمان والتقوى والعبـــادة والاستقامة ، ومع هذا كان يدعو الى أن يأخذ التلاميـــذ حظوظهم من الراحة واللعب والتسلية البريئة .

كما يروى التاريخ أن أبا القاسم عبد الله بن محمـــد ــ أحد علماء المغرب ــ قال لمعيقب بن أبى الأزهر : « ما حـــال صبيانكم فى الكتاب » ؟

فأجابه معيقب : ولع كثير باللعب .

فقال أبو القاسم : ان لم يكونوا كذلك فعلق عليهـــــم التمائم .

١٩ ــ واذا كان عصرنا يفخر بأنه قد وضع فى مجـــال التفكير والعلم مراحل يسلكها فى البحث العلمى ، ويتوصل بها الى تحقيق المعرفة ، فمن الانصاف للحقيقة والتاريخ ، بل من الانصاف لأنفسنا وشخصيتنا العربية الاسلامية أن نقرر أن التربية الاسلامية المستمدة من القرآن الكريم ، سبقـــت الى وضع المنهج القويم للتفكير والبحث والمعرفة .

لقد أشار القرآن الى مراحل هذا المنهج ، وهى تبدأ بمرحلة التجرد من الميول والأهواء والمؤثرات والتقليد ، يقول القرآن : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » . ثم تأتى مرحلة النظر والتأمل : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون »

ثم تأتى مرحلة البحث والموازنة والاستقراء ، حيث يدرك العقل مواطن الاتفاق بين الأشياء ومواطن الافتراق ، ووجوه الشبه أو وجوه الاختلاف ، تمهيدا لاستخلاص النتائج والأحكام . والقرآن ينبه الى ملاحظة الموازنة فى كثير من الآيات ، كقوله : « وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا ، وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر ، لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . وقوله : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، ان الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور » .

ثم تأتى مرحلة الحكم المؤيد بالدليل والبرهان : « قل هاتوا برهانكم أن كنتم صادقين » ، « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » ، « وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » .

ولسنا نأتى بهذا القول بدعا من عند أنفسنا ، فقد سبقنا اليه أسلاف مجدوا فى التربية الاسلامية دعوتها القوية الى حرية التفكير ، وحصانة البحث ، ومقاومة التقليد والجمود على ما كان فيه السابقون ، ففى كتاب « الوحى المحمدى » جاء ما يلى :

« كل ما نزل فى مدح العلم وفضله ، واستقلال العقل والفكر وحرية الوجدان ، والمطالبة بالبرهان ، وذم اتباع الظن والخرص فيما يطلب فيه العلم والايمان ـ يدل على ذم التقليد ، وقد ورد فى ذمه ، والنعى على أهله ، آيات كثيرة كقوله : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » . وقوله تعالى : « واذا قيل لهم : تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » .

فذمهم من ناحيتين : احداهما الجمود على ما كان عليه آباؤهم ، والاكتفاء به عن الترقى فى العلم والعمل ، وليس هذا من شأن الانسان الحى العاقل ، فان الحياة تقتضى النمو والتوليد ، والعقل يطلب المزيد والتجديد .

والثانية أنهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزية البشر فى التمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والحسن والقبيح، بطريق العقل والعلم ، وطريق الاهتداء فى العمل ، ويؤيده

قوله : « واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالاتعلمون »؟

وقال تعالى فى عبادة العرب للملائكة : « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، مالهم بذلك من علم ، ان هم الايخرصون أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ، بل قالوا : انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها : انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون » .

الاسلام ومذاهب التربية

ونحن نعلم أن هناك مذاهب كثيرة للمعرفة والتحصيل للعلم المؤدى الى التربية ، فهناك « المذهب التجريبى » الذى يعتز بالحواس ، ويعتمد عليها في الوصول الى المعرفة ، وهناك « المذهب العقلى » الذى لا يثق بالحواس وحدها ، لأنها عرضة للخطأ والصواب ، بل يعتمد أولا على العقل فى الادراك والفهم ، وهناك « المذهب النقدى » الذى يستعين فى المعرفة بالحواس والعقل معا ، وهناك « المذهب الصوفى » الذي يعتمد فى الادراك على الاشراق الروحى والذوق الوجدانى .. الخ

والتربية الاسلامية المستمدة من القرآن تؤلف من هذه المذاهب مزاجا متوازنا ، عناصره الحواس والعقول والقلوب والأرواح ، فالقرآن كما عرفنا يدعو الى استخدام الحواس

كالسمع والبصر فى النظر للتأمل : « ان السـمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » • ويدعو الى استخدام العقل في الادراك والتفكير : « افلا تعقلون » ، « كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » • « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » • ويدعو الى تطهير النفس والقـلب ليكون هناك اشراق روحي : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، « ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » أى نورا يلهمكم الحق والصواب •

واذا كانت هناك تربية مثالية فكرية خالصة ، واذا كانت هناك تربية مادية حسية خالصة ، فان الاسلام جاء بتربية مادية عقلية الهامية انسانية واقعية ، فيها للمثالية نصيب ، وللمادية نصيب •

مصادر عن التربية

والمكتبة العربية تزخر بكثير من كتب السـلف التي وضعوها عن التربية ، وفصلوا فيها القول عن أسسها ومذاهبها وقواعدها ، وموضوعاتها وطرقها ، ونلحظ في أغلب هذه الكتب انها توحي ــ حتى عن طريق عناوينها ــ بالارتباط بين التربية والدين والأخلاق ، ومن هذه الكتب ما يلي :

١ ــ فلسفة الأخلاق ، لابن المقفع المتوفى سنة ١٤٣ هـ •

٢ ــ الأدب الصغير ، له أيضا •

٣ ـ الأدب الكبير ، له أيضا ٠

٤ ـ تهذيب الأخلاق ، لابن عدى التكرينى المتوفى سنة ٣٦٤ هـ ٠

٥ ـ تهذيب الأخلاق ، لابن مسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ ٠

٦ ـ مكارم الأخلاق ، لمحمد بن جعفر الخرائطى المتوفى سنة ٣٢٧ هـ

٧ ـ مكارم الأخلاق ، للطبرسى ، من علماء القرن السادس الهجرى ٠

٨ ـ أدب الدنيا والدين ، للماوردى ، المتوفى سنة ٤٥٠ هـ

٩ ـ تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم ، لابن جماعة ٠

١٠ـ احياء علوم الدين ، للغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ٠

١١ـ أيها الولد ، له أيضا ٠

١٢ـ المنقذ من الضلال ، له أيضا ٠

١٣ـ الرسالة اللدنية ، له أيضا ٠

١٤ـ ميزان العمل ، له أيضا ٠

١٥ـ فاتحة العلوم ، له أيضا ٠

١٦ـ محاضرات الأدباء ، للراغب الحسين بن محمد الأصفهانى ٠

١٧ـ تعليم المتعلم طريق التعلم ، لبرهان الدين الزرنوجى ، من رجال القرن السادس الهجرى ٠

١٨ـ تهذيب الأخلاق ، لأبن عربى الأندلسى المتـوفى سنة ٦٣٨ هـ .

١٩ـ الذخائر والأعلاق فى آداب النفوس والأخلاق ، للباهلى الأشبيلى من علماء القرن التاسع الهجرى .

٢٠ـ اللؤلؤ النظيم فى روح التعلم والتعليم ، لأبى يحيى زكريا الانصارى ، المتوفى سنة ٩٢٥ هـ .

٢١ـ تحرير المقال فى آداب وأحكام وفوائد يحتاج اليهـــا مؤدبو الأطفال ، لابن حجر الهيثمى المصرى المتوفى سنة ٩٧٤ هـ .

٢٢ـ جامع بيان العلم ، لابن عبد البر .

٢٣ـ معيد النعم ومبيد النقم ، لعبد الوهاب السبكى .

٢٤ـ منية المريد فى أدب المفيد والمستفيد ، لزيـد الدين العاملى .

٢٥ـ آداب المعلمين ، لابن سحنون .

٢٦ـ رسالة المعلمين ، للجاحظ .

مسيرة التربية فى المجتمع الاسلامى

كانت مسيرة التربية فى المجتمع الاسلامى قد بدأت طريقها المرسوم الواضح باشراق الاسلام ، فقد كانت طرق التربية فى الجاهلية مرتجلة غير منتظمة ، لا تخلو من خير ، ولكنهـــا

لاتخضع لمنهج ، ولا تلتزم بخطة ، فلما جاء الاسلام جعل من أهدافه أن يقيم للتربية أسسا وقواعد ومبادىء .

واذا كان الاسلام قد ظهر فى أمة أمية ، وجاء على يد رسول قد بعثه الله فى الأميين ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فان هذا الرسول قد وجه همته وهو يبلغ رسالته الى اعزاز شأن العلم والكتابة والقراءة ، ومن مظاهر ذلك أنه جمع حوله طائفة من الذين يعرفون الكتابة ليكتبوا له ما ينزل من القرآن ، وما يبعث به الرسول من رسائل ، وقد زادت هذه الطائفة على الثلاثين كاتبا ، وانه لرقم عظيم بالنسبة الى قلة الكاتبين فى الأمة العربية حينئذ .

وكأن الرسول قد اعتزم منذ الطليعة أن يمحو الأمية من المجتمع ، فأمر عبد الله بن سعيد بن العاص أن يعلم الناس الكتابة بالمدينة ، وكان كاتبا محسنا ، ونرى احدى أمهات المؤمنين زوجات الرسول وهى السيدة حفصة رضى الله عنها تتعلم الكتابة على يد « الشفاء بنت عبد الله العدوية » التى كانت امرأة كاتبة فى الجاهلية ، واستراح النبى الى ذلك ، وكانت أم المؤمنين عائشة تقرأ وان لم تكتب ، وكذلك كانت أم المؤمنين أم سلمة رضوان الله على الجميع .

ولا يقال هنا : لكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أميا ، لأن أمية الرسول كانت لسبب يتصل بالمعجزة الكبرى له وهى معجزة القرآن الكريم ، فكان مجىء هذه المعجزة على يد نبى أمى لا يقرأ ولا يكتب أدل على نبوته ، ولذلك يقول

العلماء : ان الأمية فى الرسول مفخرة ، ولكنها فى سواه عيب .

ولما كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ، فقد انتهز الرسول صلى الله عليه وسلم انتصار المسلمين فى الغزوة الأولى غزوة بدر ، ووقوع عدد من الأسرى فى أيديهم ، ووجود عدد منهم يعرف القراءة والكتابة ، وأعلن أن الأسير الذى يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ، يفتدى نفسه بذلك ويتحرر من الأسر .

وبدأت أول حملة مباركة فى التاريخ لمحو الامية بصفة جماعية ، فقد علم هؤلاء الأسرى عشرات من المسلمين ، وهؤلاء العشرات علموا من ورائهم عشرات وعشرات وعشرات ،وانتشرت القراءة والكتابة ، وتفتحت أبواب للثقافة والعلم ، وكان من من وراء ذلك نصر كبير للتربية التى تعتمد على العلم والثقافة .

وتكاثرت حلقات التربية والتعليم فى المساجد والزوايا والكتاتيب والربط ودور العلماء وقصور الخلفاء والأمراء ، ورأينا الصلة تنشأ بين مكان التربية والبيت ، لأن العرب قد أدركوا منذ منذ القدم أثر البيت فى الولد ، حتى قال بعض السلف : « الطفل صورة عائلته ، فكل ما فيها من خير أو شر ، وكل ما سمعه ورآه ينطبع فيه ، ولهذا كان جهد الأمهات من أهم الأمور فى تربية الأبناء ، ومن ربى ماله ، ولم يرب ولده فقد ضيع الولد والثروة » .

ومن دلائل التعـــاون المثمر بين البيت والمربين هذه الوصايا التى كان يوجهها العرب الى الذين يربون أبناءهـم ويعلمونهم ، ومن أمثلة هذه الوصايا وصية عتـــبة بن أبى سفيان المتوفى سنة أربع وأربعين للهجرة ، ومنها قوله لمؤدب ولده : « ليكن أول ما تبدأ به من اصلاح بنى اصلاح نفسك ، فان أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت ، وعلمهم كتاب الله ، ولاتكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ٠

ثم روهم من الشعر أعفه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم الى غيره حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم ٠ وتهددهم بى وأدبهم دونى ، وكن كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء ، وجنبهم محـــادثة النساء ، وروهم سير الحكماء ، واستزدنى بزيادتك اياهـم أزدك ، واياك أن تتكل على عذر منى لك ، فقد اتكلـت عـلى كفاية منك ، وزد فى تأديبهم أزدك فى برى ، ان شاء الله تعالى»

ومن هذه الوصايا ما أوصى به هارون الرشيـــد على بن المبارك الأحمر مؤدب ولده الأمين ، وفيها يقول له : « ياأحمر ان أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبـــه ، فصير يدك عليه مبسوطة ،وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين : أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، ورو‌ه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ،وامنعه من الضحك الا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشـم

اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فائدة تفيده اياها ، من غير أن تحزنه ، فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مســـــامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة »

***

واتسع نطاق التربية والتعليم ، وظهر فى الأمة فقهـــاء وعلماء وأدباء وخطباء وشعراء ، ومؤرخون ولغويون ومفسرون ومحدثون ومؤدبون ، وشاركت المرأة العربية فى هذه النهضة فما من حقل من حقول المعرفة والثقافة نبغ فيه رجال الارافقتهم نساء ، وظهر فيمن ظهر طائفة « الكتاب » الذين يقـــومون بوظيفة « الكتابة » وهى وظيفة ذات شأن وخطر ، لا يراد منها مجرد الانشاء أو التسطير ، بل هى وظيفة جليلة خطيرة قد توازى أحيانا منصب الوزارة ، وكانت مهمة الكاتب غير بعيدة من مهمة المعلم والمربى ، وهذا عبد الحميد بن يحيى العامرى زعيم الكتاب فى أواخر دولة الأمويين ، يقـول لمن يشتغلون بهذا العمل ان الله « جعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات ، هل الأدب والمروءة والعلم والرواية ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلادهم ، لا يستغني الملك عنكم ولا يوجد كاف الا منكم » .

ولقد وجه عبد الحميد الكاتب الى أهل الكتابة وصية تربوية حكيمة، تعاون على رسم الصورة الباهرة لهيكل التربية العربية الاسلامية ، ومن هذه الوصية قوله :

« فتنافسوا يامعشر الكتاب في صنوف الآداب ، وتفقهوا فى الدين ، وأبدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فانها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخط ، فانه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ما تسمو اليه هممكم ، ولا تضيعوا النظر في الحساب ، فانه قوام كتاب الخراج .

وارغبوا بأنفسكم عن المطامع : سنيها ودنيها ، وسفاف الأمور ومحاقرها ،فانها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم عن الدناءات ، وأربئوا بانفسكم عن السعاية والنميمة ، وما فيه أهل الجهالات ، واياكم والكبر والصلف، والعظمة ، فانها عداوة مجتلبة من غير احنة ، وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذى هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم » .

ومع أن التربية الاسلامية بقى فيها — بصفة مستمرة — قدر من الأسس والعناصر ، برغم توالى الأحداث وتغير الأحوال نلاحظ أن هذه التربية كانت تتعرض لجانب أو جوانب من التكييف الخاص ، بسبب هذا الظرف أو ذاك من ظروف المجتمع فكان هناك فريق يسيطر عليهم التشدد والتزمت ، فاذا الصبغة

الدينية واضحة تسيطر على زمام تربيتهم ، ثم ينحرفون فى تصور الدين فيجعلونه سلبية وعزلة ، وزهدا انطوائيا ، وكان هناك فريق يتوسعون فى أخذ أنفسهم بالتربية الروحية الصوفية التى تبلغ بهم فى كثير من الأحيان حد الشطح أو التوهم أو الخيال ، وكان هناك فريق من الناس تتهيأ لهم أسباب الترف والتمتع بالحياة ، فيؤثر ذلك فى تربيتهم من هذا الجانب أو ذاك ، وكان هناك ممن يخضع لفكرة مذهبية أو وجهة سياسية ، فاذا هذه الفكرة أو تلك الوجهة تشكل تربيته كلها أو بعضها بشكل معين .

وكذلك جدت فى الدولة أعمال ومناصب وحرف مختلفة اقتضت أن يضاف الى المبادىء الأساسية فى تربيتهم بعض العناصر ، فمن كان معدا للكتابة يؤخذ بلون خاص من التوجيه، وكذلك من كان معدا للوزارة ، أو الولاية ، أو القيادة ، أو القضاء أو أى عمل من الأعمال أو حرفة من الحرف (١)

وجدت بعض النظم الاجتماعية أو الأخلاقية ، اقتضت تعديلا قليلا أو كثيرا فى طريقة تربية أصحابها ، مثل الفروسية ، والفتوة ، والتصوف ، والحسبة ، وغيرها .

وكان لاختلاف هذه الأحوال والأوضاع أثر كبير فى تغيير الصورة المتكاملة للتربية العربية الاسلامية التى ازدهرت

---

(١) يمكن أن نتعرف الي شواهد لذلك فى مثل كتاب « نهاية الأدب » للنويرى ، وكتاب « صبح الاعشي » للقلقشيندي .

وبهرت في صدر الاسلام ، فنقص منها فريق ، وأدخل عليها الدخيل فريق آخر ، بحيث فقدت الصورة الرائعة استقرارها واثمارها كما أراد لها الاسلام ، وان كانت أصولها وقواعدها وأسسها بقيت في بطون الكتب والمصادر ، وظلت تسامر عقول المصلحين من العلماء والحكماء .

وجاءت النكبات السياسية ، والمكائد الأجنبية ، والمؤامرات الشعوبية ، والخلافات الدينية ، والمطامع الدنيوية ، والملاحاة المذهبية ، فمزقت الأمة العربية وجعلتها شيعا ، ومزقت الأرض العربية فجعلتها قطعا ، فلم تبق تلك الوحدة الدينية والدنيوية التي كانت تهيىء جو الاستقرار الثابت لتربية عربية اسلامية موحدة ، تطبع أبناء الأمة المؤمنة بذلك الطابع التربوى الدينى الأخلاقى الدنيوى المهيىء لسعادة الدنيا والآخرة .

وبرغم كل هذه الأحداث والمحن لم تنقطع مسيرة التربية الاسلامية العربية ، وان تحيفتها عوامل التعويق والتمزيق .

***

وبعد أن استخدم المربون المسلمون المسجد والزاوية والمكتب والدور والقصور وحوانيت الكتب ، عرف المجتمع العربى الاسلامى نظام « المدرسة » بمفهومها الخاص ، ووقف القادرون من المسلمين الكثير من الأوقاف على المدارس ودور العلم ورجاله وطلابه .

وسيظل تاريخ التربية عند العرب يذكر بالتقدير والتنويه شخص الوزير : نظام الملك الحسن بن على بن اسحاق الطوسى وزير الملك شاه السلجوقى ، والمتوفى سنة ٤٥٧ هـ . لأن هذا

الوزير هو الذي أنشأ المدارس بمعناها الخاص في المجتمع العربي الاسلامي ، في أواسط القرن الخامس الهجري ، فنسبت هذه المدارس اليه ، فسميت بالمدارس النظامية ،وبدأ بناء أول مدرسة منها سنة ٤٥٧ على شاطيء دجلة ببغداد ، وتم بناؤها سنة ٤٥٩ هـ ؛

واذا كان المسجد هو المدرسة الأولى في المجتمع العربي الاسلامي ، وقام الى جواره « المكتب أو الكتاب » ، وانضم اليهما الربط والزوايا والدور والقصور والمكتبات وأنشأ العباسيون (بيت الحكمة) في بغداد ، وأنشأ الفاطميون « بيت الحكمة » في مصر ، فان أغلب مؤرخي التربية الاسلامية يرون أن تاريخ المدرسة العربية الاسلامية يبدأ بالمدارس النظامية •

ولكن ينبغي أن نذكر أن هناك من يقرر أن المجتمع العربي الإسلامي قد عرف نظام المدرسة ، قبل المدارس النظامية التي انشأها نظام الملك الطوسي ، فقد ذكر ابن خلكان والسيوطي أن هناك مدارس أنشئت قبل المدارس النظامية ، منها مدرسة ابن فورك المتوفى سنة ٤٠٦ هـ والمدرسة البيهقية ، نسبة الى البيهقي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ •

ولعل السبب في القول بأن المدارس النظامية هي أول المدارس هو أنها كانت مدارس كبيرة ، وكان التعليم فيها مجانا ، وكان التلاميذ يأخذون فيها أرزاقا ومعونات ، وقد أشار الى ذلك السبكي في كتابه « طبقات الشافعية الكبرى »

حيث ذكر أن التعليم فى المدارس النظامية كان مجانيا ، وكان هناك بجوار هذا رواتب للطلاب الفقراء ٠

والاسلام فيما نعلم هو أول من قرر « مجانية التعليم » ، وكان القرآن المجيد أول من وجه الى ذلك ، حيث قال : « قل لا أسألكم عليه اجرا ان هو الا ذكرى للعالمين » ، وقال : «قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجرى الا على الله » ، وقال : « أم تسألهم خرجا (أى أجرا) فخراج ربك خير ، وهو خير الرازقين » ٠ وهذه آية تكررت خمس مرات فى سورة الشعراء ، على السنة خمسة من الرسل ، وهى : « وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين » ٠ ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها » ٠

ومن هنا تحرج كثير من المعلمين والمربين فى صدر الاسلام ، فلم يأخذوا على التربية أو التعليم أجرا ، وكان الاتجاه العام فى صدر الاسلام أن يكون الارشاد احتسابا لوجه الله تعالى ، ولكن حينما احتاجت الأمة الى معلمين متفرغين ، كان لا بد من صيانة حياتهم ، وكفالة مطالبهم ، حتى يحسنوا التفرغ لعلمهم ، ولذلك رأى الامام الشافعى ــ كما يروى الغزالى فى فواتح العلوم ــ أن أخذ الأجرة على تعليم القرآن جائز ، وكذلك على الأذان ، واقامة صلاة القيام (التراويح) ٠ وكذلك للمدرس الذى يدرس مسائل ويكررها ، لكى يفرغ قلبه من هم المعيشة ويتفرغ للتعليم ، وقد أجازت ذلك مذاهب أخرى ٠

وقد عاون على تحقيق مجانية التربية والتعليم أمام الطلاب والتلاميذ فى المجتمع العربى الاسلامى تلك الأوقاف الخيرية التى كان يقفها أغنياء المسلمين والعرب على العلماء والتعليم وطلاب العلم ، ولقد استطاع الجامع الأزهر الشريف ان يقضى من عمر الزمن ألف عام وهو قائم بتعليم علوم الاسلام العربية للآلاف المؤلفة من طلابه مجانا بلا مقابل ، وكان كثير من علمائه يتطوعون بالتدريس حسبة لله جل جلاله ، ومنهم من كان يكتفى بأقل الزاد فى مقابل قيامه بالتدريس ٠

ويزداد افتخار الأمة العربية بذلك حينما تذكر أن الأزهر الشريف كان أقدم الجامعات وأسبقها ، فقد تأسس قبل جامعة بولونيا فى ايطاليا ، وقبل جامعات باريس وأكسفورد وكمبردج وبراغ ٠

اللغة والتربية

اذا كانت اللغة القومية هى الركيزة الأولى التى يجب أن ترتكز عليها التربية ، فاننا نلاحظ أن الاسلام قد أعطى اللغة العربية قداسة وخلودا ، أعطاها قداسة بأن جعلها لغة القرآن : « انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » ، « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا » ، « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » ٠ وأعطاها قداسة حين جعل كلمات القرآن وحيا الهيا يتعبد المؤمنون به ، ويرددونه فى صلواتهم ، وأعطاها

خلودا حيث جمع لسانها على هذا البيان القرآنى المعجز الباقى « أنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم اللغة العربية هى العنصر الأساسى فى بناء العروبة فقال : « يا أيها الناس ، ان الرب واحد ، والأب واحد ، وان الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، انما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربىّ » .

وهذا الموضوع يذكرنا بما بين القومية والعقيدة من صلة وارتباط فى المجتمع العربى ، وعلى الرغم من المكائد الكثيرة الموصولة لايجاد ألوان من الشقاق بين العروبة والاسلام ، ظل البصراء من أبناء هذه الأمة العربية ذات الرسالة المجيدة والتراث العظيم مؤمنين بأن الالتئام الواعى البصير بين قوميتنا وعقيدتنا ركن ركين فى بناء حضارتنا ومدنيتنا ، وفى سنة ١٩٥٩ قلت فى كتابى « وسائل تقدم المسلمين » هذه العبارة :

« لقد كان من نتيجة كفاح العرب الأخير فى سبيل حريتهم واستقلالهم أن استيقظت فيهم القوميـة العـربية ، وانتشرت دعوتها بينهم بصورة قوية واضحة ، حتى نص الكثيرون منهم عليها فى مناهجهم الأساسية وقواعدهم السياسية العامة ، ونحن فى فورة الحماسة لهذه القومية ، وفى ثورة الجهـاد لتحقيقها وتكريمها ، يجب أن نذكر الصلة الوثيقة ـ التى يلزم أن تزداد على الدوام توثقا ـ بين العروبة والاسلام ، وما

عقدته يد الله الحكيمة القوية لا يجوز أن تحله يد الانسان أو الشيطان .

وقد أراد العليم الخبير أن تكون العروبة وعاء الاسلام وأراد فى الوقت نفسه أن يكون الاسلام روح تلك العروبة والعامل المهم فى تحريرها وتكريمها وتعظيمها وتخليدها على الأيام ، فقد شاء الله أن يكون نبى هذا الدين رجلا عربيا من صميم العرب ، وأصدقهم فى العرب نسبا ، وجعل الله تعالى مبعث هذا النبى ومبدأ دعوته العالمية الباقية فى أرض عربية وواد عربى ، هو أشبه بمركز الدائرة بين بلاد العروبة ، وأنزل الله دستور هذا الدين المتعبد به ، وهو القرآن المجيد المحفوظ، بلسان عربى مبين ، وفصله بيانا عربيا ، غير ذى عوج ، وجعل تفسير هذا الدستور الالهى الخالد تفسيرا عربيا فى لغته وبيانه ، وهذا التفسير هو الحديث الشريف .

وجعل الله المسارعين الى هذا الدين وحملته الأوائل الموصوفين فى كل جيل بأنهم السلف الصالح ، وبأنهم السابقون المحسنون ، جعلهم قوما عربا من صميم العرب فى دارهم وجنسهم ولغتهم وخصائصهم ، وجعل القبلة التى يتجه اليها المسلمون كل يوم عدة مرات بأبصارهم وبصائرهم ، وأشباحهم وأرواحهم ، وحواسهم ونفوسهم ، بنية فى أرض عربية عريقة العروبة وهى الكعبة الحرام فى مكة المكرمة ، الكعبة التى يقول فيها القرآن المجيد :

« جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس » ، ومكة المشرفة

التى يشير اليها القرآن وينوه بها ، ويقرر أن الكعبة أول بيت وضع للناس ، فيقول سبحانه : « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة ٠٠ » الخ ٠

واذا كان الاسلام قد رفع من شأن العروبة بهذا القدر ، فان العرب الأوائل الذين حملوا رسالة هذا الدين قد أدركوا فضل هذا الصنيع من الاسلام ، فاستجابوا له ، وأخلصوا فى خدمته ، وخضعوا لسلطانه طواعية واختيارا ، واعتزوا به الاعتزاز البليغ ، ونسوا فى سبيله أحسابهم وأنسابهم ، وعنجهياتهم وعصبياتهم ، وباعوا الله من أجله أرواحهم ، وبذلوا أموالهم ، وحصروا فخارهم فى الاعتزاز بهذا الدين ، ولعمل بمبادئه الانسانية السمحة » (١) ٠

(١) كتاب « وسائل تقدم المسلمين » ص ١٢٠ ـ ١٢٢ طبعة سنة ١٩٥٩م

من أعلام التربية فى الاسلام

لقد ازدانت مراحل التاريخ العربى الاسلامى بطائفة من أعلام المفكرين وعلماء التربية الموجهين ، الذين كتبـــوا فى التربية ، وتحدثوا عن أسسها وأهدافها ، وعن عنـــاصرها ومقوماتها ، ومن هؤلاء : الغزالى ، وابن خلدون ، وابن سينا ، والماوردى ، وابن مسكويه ، وابن جمـــاعة ، والقـــابسى ، والأصفهانى ، والنعيمى ، والسبكى ، والزرنوجى ، وابن حزم ، والباهلى ، وزكريا الأنصارى ، وابن حجر الهيثمى ، وغيرهم .

* * *

وكان ظهور هؤلاء الأعلام ثمرة طيبة للتفاعل العقلى الواسع النطاق الذى أحدثه الاسلام بنزول القرآن ، وانتشار الدعوة ، واتصال البيئة العربية بغيرها من البيئات علميا وثقافيا ، وقد كان لدى هؤلاء الأعلام استعدادهم الشخصى لنبوغهم فيما نبغوا فيه ، وتأثرهم بالتغيير الكبير الذى أحدثه الاسلام ، وعوامل البيئة التى نشأوا فيها ، ثم اجتهادهم واستنباطهم ، ثم اطلاع

الكثير منهم على جوانب من التراث المترجم عن غير العرب بعد اتساع الفتح الإسلامى .

وليس من الميسور فى مجال محدود كهذا المجـال أن نستوعب الحديث عن كل أعلام التربية في التاريخ العـربى ، بل الميسور هو أن نعرف تعريفا موجزا بمذاهب عدد منهم فى التربية وأسسها ، ليكون هذا التعريف معوانا على استكمـال الرؤية الفكرية للاسس التاريخية فى تراثنا المعربى الاسلامى التربوى .

الغزالى والتربية

وأول من نختاره من بين هؤلاء الأعلام حجة الاسلام أبو حامد الغزالى الذى توفى سنة خمس وخمسمائة للهجرة ، فقد تحدث عن أمور التربية فى طائفة من كتبه أهمها « احياء علوم الدين » ثم « أيها الولد » و « المنقذ من الضلال » وميـزان العمل » و « الرسالة اللدنية » و «فاتحة العلوم » .

وأول ما يلحظه فى حديث الغزالى عن التربية أنه يجعل الدين أساسا أهم من كل أساس فى بنيان التربية ، ولذلك نراه يصدر كل فصل من فصول « الاحياء » بايـراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وآثار الصحابة والسلف المتعلقة ببيان المسائل التربوية التى تعرض لها ، وكذلك يؤمن بأن التصوف السليم الصادق يورث الانسان معرفة واستقامة لا

مثيل لهما ، ولعل السبب فى هذا الاتجاه من الغزالى انه ــ كما ذكرت فى كتابى « الغزالى والتصوف الاسلامى » ــ قد تصوف على بصيرة ، «فجمع بين التصوف والشريعة، واحتكم فى تصوفه الى القرآن والسنة ، وأعطى التصوف صبغة اسلامية فتحت الطريق للوفاق بين الفقهاء والصوفية ، وربط تعاليم التصوف بمبادىء الاسلام ، وكما فسر الاسلام فى ضوء التصوف فسر مبادىء التصوف فى ضوء الاســـلام ، وكون من الشريعـة والحقيقة ــ أو من الفقه والتصوف ــ مزيجا آمن بأنه الاسلام المثمر لما فيه من حياة » (١).

والغزالى المربى يرفع مكانة العلم الى أعلى مكانة ، ولذلك صدر كتابه « الاحياء » بالحديث عن العلم والمعلم والمتعلم ، لأن هذا الموضوع كما يقول هو « غاية المهم » .

ويمكن أن يقال أن الغزالى قد وضع فى كتبه نظاما تربويا كاملا ، وقد ظهر هذا بوضوح فى كتابه الجليل « الاحياء » ، ولو أن ماتناثر فى كتب الغزالى عن التربية تهيأ له التجميع والترتيب والتبويب لأستوت أمامنا خطة للتربية متكاملة ،واذا كان النظام التربوى ينهض على دعامتين هما المنهج والطريقة ، فالغزالى قد تحدث بتوسع عنهما .

---

(١) كتابى « الغزالى والتصوف الاســـلامى » ، ص ١٨١ . طبعة دار الهلال سنة ١٩٦٥ م .

والغزالى بعد أن يقرر أن التربية والتعـــليم من الفرائض الاجبارية ، يذكر أن هناك علوما مفروضة فرض عين ، يطالب بها كل مكلف ، وهى علوم الدين التى نعرف منها العقـــائد والعبادات ، وأن هناك علوما مفروضة فرض كفاية ، اذا قام بها عدد من أبناء الأمة بصورة كافية سقط الاثم عن الباقين ، والا كان الجميع آثمين اذا أهملوها ، وفى ذلك يقول :

« أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا ، كالطب اذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فانه ضرورى فى المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها ، وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بهـــا حرج أهل البلد ، واذا قام بها واحد كفى ، وسقط الفرض عن الآخرين ، فلا يتعجب من قولنا ان الطب والحساب من فروض الكفايات ، كالفلاحة والحياكة والسياسة ، بل الحجـــامة والخياطة ، فانه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك اليهم ، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك ، فان الذى أنزل الـــداء أنزل الدواء ، وأرشد الى استعماله ، وأعد الأسباب لتعاطيه ، فلا يجوز التعرض للهلاك باهماله » (١) . وفى هذا النص اشارة للأخذ بالتخطيط فى التعليـــم ، وتوزيع الطلاب فى دراستهم حسب حاجات المجتمع .

---

(١) احياء علوم الدين ، ج ١ ص ٢٨ طبعة سنة ١٣٥٦ هـ ، لجنة نشر الثقافة الاسلامية .

ويستعرض الغزالى العلوم والموضوعات التى يدرسها المتعلم ، ويوضح مراتبها ، ويبين الطريقة التى يدرس بها المعلم هذه المواد ، ويؤكد أن العنصر الدينى فى التربية هو الجوهر الأساسى المطلوب من ورائها ، لأن غاية التربية هى التقوى والفضيلة والقرب من الله تعالى ، مع عدم اهمال الدنيا ، ولكن على أساس أن الدنيا مزرعة للآخرة . ولذلك كانت العلوم الدينية عند الغزالى هى أهم العلوم ، وتليها علوم اللغة ، وتليها العلوم الضرورية لحياة الناس كالطب والحساب والصناعات ، ثم تليها العلوم الأدبية الثقافية كالشعر والتاريخ والفلسفة والمنطق . ويرى الغزالى أن هناك علوما مذمومة على كل حال كالسحر والشعوذة والتنجيم الذى يراد منه (كشف الطالع) . وأن هناك علوما محمودة حينا ، ومذمومة حينا آخر كبعض الفلسفة وبعض المذاهب الطبيعية .

ويقرر الغزالى ان الانسان لا يولد عالما ، وانما يستطيع أن يصير عالما بالتعلم ، واذا كان هناك ما يسمى « علم المكاشفة » الذى لا تطيق أفهام الخلق احتماله ، فان « علم المعاملة » هو ما يطلب فيه العلم به والعمل بمقتضاه ، ويذكر لنا الغزالى أن المقصود من كتابه « احياء علوم الدين » هو علم المعاملة فقط . وينوه حجة الاسلام بأهمية العمل بالعلم فيقول : « العلم بلا عمل جنون ، والعمل بغير علم لا يكون » ويقول أيضا : « فمن علم وعمل بما علم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السموات » .

واذا كان الغزالى يجعل للعقل قيمة كبيرة فى الادراك والفهم ، فانه يقرر أن العقل مهما كان كبيرا لا يستطيع صاحبه الاكتفاء به والاستغناء عن الشرع ، ويصور ذلك بصورة تشبيهية تمثيلية ، فيذكر فى كتابه « الاقتصاد في الاعتقاد » ان العقل المنزه عن الخبث والهوى يشبه العين السليمة من العاهات والآفات ، وأن الشريعة تشبه الشمس التى تغمر الأشياء بنورها ، فتكسبها ألوانا ، وتصبح رؤيتها ممكنة فلا العين تستطيع الرؤية دون النور ، ولا الألوان تظهر الا اذا رأتها العين ، وعلى هذا فالانسان الذى يردد آيات القرآن دون أن يستخدم عقله فى فهمه ، يشبه من يغمض عينيه فلا يرى الضياء ، فلا فرق بينه وبين من فقد بصره حقيقة ،والذى يعرض عن الشريعة زاعما أنه يستطيع الاعتماد على العقل وحده ، يشبه من فسد طبعه ويصر على رؤية الأشياء فى ظلام مطبق ، فالصواب هو أن تجمع بين هدى الشريعة ونور العقل

ويرى الغزالى أنه ينبغى أن يكون التعليم بحسب الحاجة اليه ، وبحسب ما يتجدد من الحال ، ويرى أنه من العبث أن نعلم الانسان شيئا لا يحتاج اليه ، فما الداعى الى تعليم الأبكم الذى لا يتكلم النوع المحرم من الكلام ، وما الداعى الى أن نعلم مكفوف البصر ما يحرم النظر اليه ، وهكذا (١)

ويرى أنه ينبغى التلطف فى توصيل المعلومات الى ذهن من يتعلم ، ويضرب لذلك مثلا ما فعله بعض الحكماء حينما

---

(١) احياء علوم الدين ، ج ١، ص ٢٦ .

أراد استمالة بعض الرؤساء الى علم الطب ، فسماه « تقويم الصحة » وصاغ معلوماته على هيئة تقويم النجوم ، موضوعا فى الجداول والرقوم ، ليكون ذلك دافعا الى المطالعة ، لأن « التلطف فى اجتذاب القلوب الى العلم الذى يفيد حياة الأبد أهم من التلطف فى اجتذابها الى الطب الذى لا يفيد الا صحة الجسد » • وهو يقصد بالعلم الذى يفيد حياة الأبد علم الدين والفقه والأخلاق ، لأن ثمرة هذا العلم طب القلوب والأرواح المتوصل به الى حياة تدوم أبد الآباد ، فأين منه الطب الذى يعالج به الاجساد (١)

وينص الغزالى على طائفة من الصفات والآداب التى يجب ان يتحلى بها المعلم المربى ، ومنها :

١ ــ أن يستشعر الشفقة على التلاميذ دون ضعف ، وأن يجعلهم كأبنائه •

٢ ــ أن لا يقصر فى خدمة المتعلم ، ولا يترك من نصحه شيئا •

٣ ــ أن يزجر المعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض قدر الامكان (٢) •

٤ ــ أن لا يقبح المعلم فى نظر المتعلم علما آخر غير العلم الذى يدرسه له •

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥ •

(٢) يطالبه الغزالى بحسن توجيه الغرائز عند المتعلم ، وبتعويده شيئا من الخشونة فى الحياة ، مع اعطائه حظه من اللعب واللهو البرىء ، مع تعويده آداب السلوك والمعاملة •

٥ ــ أن يقتصر مع المتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى اليه مالا يبلغه عقله ، فيدفعه ذلك الى النفور من التعلم .

٦ ــ ان يبدأ مع المتعلم بالجلى الواضح .

٧ ــ أن يعمل المعلم بعلمه ، ليكون قدوة صالحة أمــام تلميذه .

وينص كذلك على طائفة من الآداب التى يجب أن يتحلى بها التلميذ ، ومنها :

١ ــ تطهير نفسه وتجريدها من الرذائل .

٢ ــ عدم تعلقه بالشئون الدنيوية الملهية .

٣ ــ التواضع للمعلم وحسن الأدب معه .

٤ ــ عدم المجادلة قبل استيفاء العلم .

٥ ــ أن لايترك طلب علم من العلوم المفيدة ، بل يحصــل العلوم المتنوعة بقدر امكانه .

٦ ــ التدرج فى دراسة العلوم ، مــع الترتيب والبــدء بالأهم فالأهم .

٧ ــ أن لا ينتقل من علم حتى يتقن العلم السابق حسب الترتيب .

٨ ــ أن يعرف الثمرة والفائدة من العلوم التى يتعلمها .

٩ ــ أن يقدم العلم القريب المتناول على البعيد .

١ــ أن يقصد من تعلمه تربية نفسه وتجميلها بالفضيله والتقرب من الله .

* * *

هذا ولقد قلت فى كتابى « الغزالى والتصوف الاسلامى » فيما يتعلق بأسلوبه فى التفكير هذه العبارة :

« والغزالى يتبع الطريق العلمى السليم فى بحوثه ، فهو أولا يقدم لموضوعه بمدخل يمهـــد الطريق أمامه ، ثم هو يستعرض جوانب الموضوع المختلفة ، ويذكر وجهات النـــظر المتعددة فيه ، كأن يذكر المضار والمنافع ، أو المحـــــاسن والمساوىء ، ويذكر أدلة المختلفين فيه ، ثم يعقب ذلك بعرض رأيه الشخصى ، سواء أوافق رأى من سبقه أو خالفه .

وهو يستند فى بحثه الى الحس ، والعقل ، والتجربة الذاتية ، والتذوق ، والادراك ، والالهام . واذا كان الغزالى قد آمن بطريق القلب فى المدركات الدينية — وخاصة عقب تصوفه — فانه لم ينكر الحقائق العلمية ، وقد فرق بين العلم والدين حين قال ان العلم يستند الى العقل ، والدين ينبعث من القلب ، وفى الوقت نفسه يؤكد أنه لا تناقض بين العلم والدين . »

ولقد كان الغزالى فى صدر حياته يظن أن العقل هو الملكة العليا ، وأنه اذا تحرر وانطلق استطاع أن يدرك الحقــائق ويعرف الأصول ، ولذلك كان يؤكد أن التقليد والجمـــود والتعصب والهوى حواجز تمنع من المعرفة الصحيحة والتفكير الحر .

وعلى الرغم من أن الغزالى قال : « ان الذين اعتقدوا الدين تقليدا وسماعا من أبويهم من غير بحث عن الطرق البرهانية

هم المسلمون حقا » فانه كان يكتب بعقل وتفكير ، بدليل أننا نراه فى كتابه « احياء علوم الدين » يفرق بين ايمـــان العوام الذى يستند الى التقليد فقط ، ويجعـل هذا أقـل درجات المعرفة ، وايمان المتكلمين ، وهو يعتمد على نوع من الاستدلال ، وهو أعلى من ايمان المقلدين ، وايمان العارفين الذى ينهض على المشاهدة المؤدية الى اليقين •

ولكن الامام الغزالى لم يحصر طريق المعرفة فى العقـل بل هو يجعل طرق المعارف ثلاثة أنواع : حسية ، وعقليـة ، ودينية • يبدأ الانسان بادراك العالم الظاهرى الحسى بالحواس الخمس ، ثم يتحرك عقله وينمو فيدرك به المعقـولات ، كالواجبات والجائزات والمستحيلات ، كما يدرك به المعـانى والحقائق العقلية المستترة خلف المحسات •

ومن وراء العقل عين أخرى تدرك المعارف الدينية ، ومنها يدرك الانسان الأنوار الغيبية ، وهذا يتمثل فى النبـوة ، ويربط الغزالى هذا بالحديث النبوى الذى يقول : « ما من عبد الا ولقلبه عينان » ، فاذا أراد الله تعالى بعبد خيرا فتح هاتين لعينين ليرى بهما ما هو غائب عن بصره » •

ومعنى هذا أن الغزالى يقول بحاسة سادسة يمكن ان نسميها « الحاسة الدينية » ، ويرى أن محل هذه الحاسة هو القلب ، وهو حسب تعبيره « اللطيفة الربانية الروحانية لتي لها بالقلب الجسماني تعلق »

وهذا القول يذكرنا بما يذهب اليه الفيلسوف « وليم جيمس » (١) فى كتابه : « تعدد التجارب الدينية » حيث يرى أن التجارب الدينية تختلف باختلاف الطبائع والأمزجة والثقافات والبيئات ، لأن مرد التجربة الدينية الى « الشعور » فاذا استطاع الانسان أن يغوص فى أعماق نفسه انعقدت بينه وبين ربه صلة هى ما نسميها بالتجربة الدينية ، ويصور الانسان هذه التجربة بحسب ما يحسه فى نفسه ، ولذلك تختلف التجارب هنا وتتعدد .

وهذا القول ـ يشبه كما عرفنا ـ ما ذهب اليه الغزالى من القول بالحاسة السادسة : « الحاسة الدينية » من ناحية الاعتماد على التجربة أو التذوق ، واختلاف التجارب ، وتفاوت المراتب وان كان بين الاثنين بعد هذا الاختلاف ما بين الغزالى المتصوف وجيمس الفيلسوف » (٢) .

---

(١) وليم جيمس : فيلسوف وطبيب أمريكى ، ولد سنة ١٩١٠ . ول كتب منها « مبادىء علم النفس » و « ارادة الاعتقاد » ، وكان لكتابه « أحاديث الى المعلمين عن علم النفس » تأثير عميق فى اتجاهات التربية ، وقد عنى بتوجيه الانظار الى دراسة غرائز الاطفال واستخدامها فى التربية . ويرى ان المربي يحتاج ـ عدا المعرفة العلمية ـ الى موهبة ومهارة ولباقة خاصة (الموسوعة العربية الميسرة) .

(٢) كتاب الغزالى والتصوف الاسلامى ، ص ٧٩ ــ ٨١ . طبعة دار الهلال . سنة ١٩٦٥ .

ابن خلدون والتربية

ثم يأتى حديث ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ .

تحدث ابن خلدون عن التربية والتعليم حديثا له قيمته وأهميته فى كتابه المشهور (مقدمة ابن خلدون)

ويرى ابن خلدون أن تعلم القرآن الكريم هو الأساس فى التربية والتعليم ، وفى ذلك يقول : « اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين ، أخذ به أهل الملة ، ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث ، وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات » (١) .

وهذا النص يؤكد لنا نهوض التربية العربية الاسلامية على أساس من الدين .

ثم يبين ابن خلدون اختلاف مذاهب الأمصار الاسلامية فى تعليم الأولاد ، فأما أهل المغرب فمذهبهم الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، وأما أهل الأندلس فيجعلون الأساس تعليم القرآن ، ويضيفون رواية الشعر والأخذ بقواعد العربية وتجويد الخط ، وأما أهل أفريقية فيجمعون بين تعليم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٣٩ طبعة الدكتور وافى .

القرآن والحديث وقوانين العلوم وتجويد الخط ، وأهل المشرق يقاربون أهل أفريقية (١) .

ويشير ابن خلدون الى الفوائد الأخلاقية التى يثمرها التعليم ، فيقول : « وقد يقال : من أخذ نفسه بتعليم الحساب أول أمره فانه يغلب عليه الصدق ، لما فى الحساب من صحة المبانى ، ومناقشة النفس ، فيصير بذلك خلقا ، ويتعود الصدق ويلازمه مذهبا » .

ويعلق الدكتور وافى على ذلك بأن « نظرية الفوائد الخلقية للعلوم » التى يظن أنها من نظريات المحدثين من علماء البيداجوجيا قد قال بها ابن خلدون قبل أن يظهر هؤلاء بأكثر من أربعة قرون .

ويأخذ ابن خلدون بمبدأ التدرج فى التعليم ، حيث يعطى المعلم تلميذه مسائل الفن من الفنون (٢) مختصرة أولا ، ثم يذكر له بعد ذلك جانبا من التفصيل مع لون من التطويل ، ثم يعود به الى الاستقصاء والاستيعاب يقول فى ذلك : « اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا ، وقليلا قليلا . يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب ، ويقرب له فى شرحها على سبيل الاجمال ، ويراعى فى ذلك قوة عقله ،

---

(١) يراجع التفصيل فى المرجع السابق ، ص ١٢٤٠ ــ ١٢٤٣ .
(٢) المراد بالفن هنا المادة من مواد العلوم ، كالفقه والنحو وغيرهما .

واستعداده لقبول ما يرد عليه ، حتى ينتهى الى آخر الفن ، وعند ذلك يحصل له ملكة فى ذلك العلم ، الا أنها جزئيـة وضعيفة ، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ٠

ثم يرجع به الى الفن ثانيـة ، فيرفعه فى التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ، ويستوفى الشرح والبيـان ، ويخرج عن الاجمال ، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه ، الى أن ينتهى الى آخر الفن فتجود ملكته ٠

ثم يرجع به وقد شدا (١) فلا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا الا وضحه ، وفتح له مقفله ، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته ٠ هذا وجه التعليم المفيد ، وهو كما رأيت انما يحصل فى ثلاث تكرارات ، وقد يحصل للبعض فى أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه (٢) ٠

ويحمل ابن خلدون على أولئك المعلمين الذين يعمدون الى أساليب التعمية والتعقيد مع تلاميذهم ، فيقول : « وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذى ادركنا يجهلون طرق التعليم وافادته ، ويحضرون للمتعلم فى أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ، ويطالبونه باحضار ذهنه فى حلها ، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه ، ويكلفونه وعى ذلك وتحصيله ، ويخلطون عليه بما يلقون له

---

(١) يعنى أخذ طرقا من العلم والأدب ٠

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٣٣ ٠

من غايات الفنون فى مبادئها ، وقبل أن يستعد لفهمها ، فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا » .

ولذلك لم يكن عجيبا أن يطالب منذ البداية بتوافر الملكة والحذق والخبرة بقواعد التدريس والتفنن فيه عند المعلم فيقول : « الحذق فى العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه انما هو بحصول ملكة فى الاحاطة بمبادئه وقواعده ، والوقوف على مسائله ، واستنباط فروعه من أصوله ، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق فى ذلك المتناول حاصلا ، وهذه الملكة هى غير الفهم والوعى » .

ثم يقول : « ان تعليم العلم صناعة » فلها أصول وقواعد لا بد من التمرس بها (١) .

ويؤكد ابن خلدون أن الشدة فى التعليم مضرة ، وأنها تذهب بنشاط النفس ، وتعود التلميذ الكذب والخداع وسوء الأخلاق ، يقول : « ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه الى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقا ، وفسدت معانى الانسانية التى له من حيث الاجتماع والتمرن ، وهى الحمية والمدافعة

---

(١) المقدمة ، ج ٣ ص ٩٨٥ .

عن نفسه ومنزله ، وصار عيالا على غيره فى ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى انسانيتها ، فارتكس وعاد فى أسفل السافلين »

ويعنى ابن خلدون بالتجربة فى التعليم والتربية ، ويلفت النظر الى الاهتمام بالتجربة فى المواد العملية قبل سوق العلوم النظرية ، فيقول : « النفس الناطقة للانسان انما توجد فيه بالقوة ، وان خروجها من القوة الى الفعل انما هو بتجدد العلوم والادراكات عن المحسوسات أولا ، ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية ، الى أن يصير ادراكا بالفعل وعقلا محضا ، فتكون ذاتا روحانية ، وتستكمل حينئذ وجودها ، فوجب أن يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلا فريدا ، والصنائع أبدا يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمى مستفاد من تلك الملكة ، فلهذا كانت الحنكة فى التجربة تفيد عقلا ، والملكات الصناعية تفيد عقلا .. (١) .

وقال ابن خلدون أيضا عن التجربة فى المواد العملية : « اعلم أن الصناعة هى ملكة فى أمر عملى فكرى ، وبكونه عمليا هو جسمانى محسوس ، والأحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة أو عب لها وأكمل ، لأن المباشرة فى الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة ، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى ، حتى

---

(١) المقدمة ، ج ٣ ص ٩٧١ .

توسخ صورته ، وعلى نسبة الأصل تكون الملكة ، ونقل المعاينة أو عب وأتم من نقل الخبر والعلم ، فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر ، وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم فى الصناعة وحصول ملكته »

* * *

ويدعو ابن خلدون فى التربية والتعليم الى مبدأ المناقشة بين المعلمين والمتعلمين ، ويعد ذلك أساسا مهما فى طلب العلم ، ولذلك يعيب على طائفة من التلاميذ أنهم لا يناقشون ولا يحاورون : « تجد طالب العلم منهم يعد ذهاب الكثير من أعمارهم فى ملازمة المجالس العلمية، سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون ، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة ، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف فى العلم والتعليم ، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد تحصل تجد ملكته قاصرة فى علمه ان فاوض أو ناظر أو علم » (١) .

وينوه ابن خلدون بتعريب العرب العلوم عن الأمم ونقلها الى اللغة العربية ، وأنهم جردوها من تلك اللغات الأعجمية الى لسانهم ، وأصبحت أصول الكتب التى عربوها نسيا منسيا عندهم ، وأصبحت العلوم كلها بلغة العرب ، ويقرر أن التمكن من اللغة العربية يسهل على الطالب فهم المعانى فى مختلف كتب العلوم ، حتى ولو كان أعجمى الاصل ، لانه بدأ به

---

(١) المقدمة ، ج ٢ ص ٩٨٧ .

على التعليم والمرأن على اللغة العربية وممارسة الكتابة بهـا يفضيان بالانسان الى تمكن الملكة عنده كما يشاهد فى علماء الأعاجم الذى تعربوا وأجادوا العربية (١) .

ومن الطرائف في حديث ابن خلدون عن التربية والتعليم ما يذكره عن طريقة أهل الأندلس والمغرب ، اذ كانوا يتبعون فى تعليم الكتابة طريقة « محاكاة الخط فى كتابة الكلمـات جملة ، ويكون ذلك من المتعلم ، ومطالعة المعـلم له الى أن تحصل له الاجادة ، وتتمكن في بنائه الملكة » . ويعلق على ذلك الدكتور وافى بقوله ان هذه الطريقة أمثل طريقة من الوجهة التربوية لمسايرتها للواقع من جهة ، ولطبيعة العقـل الانسانيمن جهة أخرى ، فالواقع أن الكلمة هى التى لها مدلول فى ذهن الطفل ، أما الحرف فلا مدلول له ، والعقل الانسانى ينتقل بطبيعته من ادراك الكل الى ادراك أجزائه (٢)

ونظرة ابن خلدون الى مواد العلوم نظرة فسيحة واسعة ، وقد يشهد لذلك أننا نراه يتحدث عن بعض العـلوم التى نستطيع أن نسميها اليوم « علوم الفضاء » ، فهو حين يتحدث عن علوم النظر فى المقادير يقول : « ورابعها علم الهيئة ، وهو تعيين الأشكال للافلاك ، وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة ، والقيام على معرفة ذلك من قبل الحـركات

---

(١) المقدمة ، ج ٤ ص ١٢٥٢ .
(٢) المقدمة ج ٣ ص ٩٥٠ .

السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها ، ومن رجوعها واستقامتها ، واقبالها وادبارها » . ثم يقول : « ومن فروع الهيئة الأزياج ، وهي قوانين لحسابات حركات الكواكب وتعديلها ، للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك » (١) .

وهو أيضا يعدد علوم النظر فى المقادير ، ويذكر منها علم الهندسة ، وعلم الحساب ، ويقول : « وعلم الموسيقى ، وهو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض ، وتقديرها بالعدد ، وثمرته معرفة تلاحين الغناء » .

وقد ينبغى لنا هنا أن نذكر ان حجة الاسلام الغزالى قد عقد فى كتابه « الاحياء » بابا طويلا عن السماع ، أبان فيه بتوسع الأثر العميق للالحان فى نفس الانسان ، وذكر فيه أقوال العلماء ، ثم أورد الأدلة على جواز اباحة السماع للغناء والألحان (٢) .

وليس هذا هو الشبه الوحيد بين الغزالى وابن خلدون فى حديثهما عن التربية والتعليم ، فقد اشتركا واشترك معهما غيرهما فى عدة أمور منها : ان العلم أهم غرض ، وأن العلم بالتعليم ، وأن العنصر الدينى مهم فى التربية ، وعماد ذلك هو القرآن الكريم ، وأنه يجب التلطف والتدرج فى التربية وان العلم للعمل ، وان المعلم يحتاج الى مهارة وخبرة ، وان

---

(١) ج ٤ ص ١٠٨٦ .

(٢) الاحياء ، ج ٦ ص ١٣٦ — ١٩٩ .

التجربة العملية مهمة في التحصيل ، وأن العلوم متفاوتة الدرجات ، وأنه تنبغى مراعاة النزعات الفطرية ٠

***

وأعود لأذكر أن هذه اللمحة عن علمين من أعلام التربية العربية ، وهما الغزالى وابن خلدون ، لم أرد منها الا اعطاء نموذج مختصر لجهود شخصين ازدان بهما تاريخ التربية عند العرب ، ومن الممكن عند اتساع المجال أن نستعرض جهود غيرهما من أعلام التربية الاسلامية ، وان نقارن بينهم ، وان نتبين كيف أثر هؤلاء الأعلام فى تكييف الأسس التاريخية التى رعاها لنا التراث الاسلامى التربوى ، لنزداد ايمانا بأن أسلافنا قد خلقوا لنا ما نستطيع أن ننتفع به ، وأن نستمد منه ، وأن نفاخر غيرنا عن طريقه ٠

نحن وتراثنا التربوى

كيف نستطيع أن نمضى على طريق الانتفاع بأسسنا التربوية التاريخية الاسلامية فى حاضرنا أو مستقبلنا التربوى ؟ . واذا كان هناك من يقول : ان تراثنا فيه كل شىء ، وينبغى أن نعود اليه ونقتصر عليه ، وكان هناك من يقول : انه ينبغى لنا أن نعد تراثنا القديم قد استنفد أغراضه ويجب أن نأخذ عن غيرنا ممن سبقونا كل شىء ، فان القول العدل الفصل هو أن نقول : ان فى تراثنا أشياء ينبغى أن نعتز بها ونحرص عليها ، ونحتاج من غيرنا الى أشياء لا ضير اذا أخذناها عنه ، والحكمة ضالة المؤمن .

لا يليق بنا أن نحبس أنفسنا فى محراب تراثنا التربوى القديم الذى وقفت نهضته منذ قرون ، وظلت واقفة عدة قرون ، كما لا يليق بنا أن نهجر هذا المحراب ، ونولى وجوهنا على الدوام شطر غيرنا ، نستمد منه كل شىء تاركين تراثنا الجليل الضخم معرضا للضياع . ولكن اللائق بنا هو

أن نوجد توازنا بين النزعة السلفية الغالية في المحافظة على القديم ، والنزعة المقلدة الغالية فى متابعة الغرب •

واذا كان التطور سنة الحياة ، فان هذا لايمنع أن يكون عصر قد مضى أرقى ـ فى جانب أو جوانب ـ من عصر لاحق يقبل بعد ذلك •

وفيما يلى أمور يمكن أن نلتقطها من طريق الانتفاع بتراثنا :

١ ـ اذا كانوا قد قالوا ان سقراط قد نزل بالفلسفة من السماء الى الأرض ، ووثق صلتها بشئون الانسان الاجتماعية والسياسية والخلقية ، واذا كانت الفلسفة قد انتقلت من البحث فيما وراء الطبيعة الى حياة الانسان ومطالبه فان التربية أولى من الفلسفة بأن تسلك طريقها العملى نحو اعداد الفرد والجماعة ، اعدادا حسيا ونفسيا وعقليا ، وروحيا وقوميا وانسانيا ، ليتكون المجتمع العاقل الفاضل المناضل •

٢ ـ تجب العناية بجعل التربية فى العالم العربى وسيلة لتنمية الشخصية ، وضبط السلوك وحسن المعاملة ، وانشاء العلاقات الكريمة بين أبناء المجتمع ، وتعميق روح التعاون والتضامن والمساواة •

٣ ـ يجب ابراز الشخصية العربية ، وروح القومية العربية فى المدرس ، والمنهج ، والكتاب ، والتلميذ ، والمدرسة •

٤ ـ تجب العناية كل العناية بالتربية الدينية علما وعملا وخلقا ، ولنتذكر أنه قد جاء فى كتـــاب « تطور النظرية التربوية » هذه العبارة :

« الفلسفة الناجحة يجب أن تتكيف طبقا للقوانين الطبيعية المناسبة للحياة الروحية ، ومادمنا نتفق على أن هذا الكون الذى نعيش فيه تتخلله نعمة الهية ، وتربطه وحدة اخلاقية ، فلتكن طرق المعيشة التى نسير عليها ونبغى لها النجـــاح متفقة مع القوانين الأخلاقية ، وعلى التربية قبل كل شىء أن تقود النشء الى الطريق الصحيح ، حيث يشـــع من وراء السحب ذلك القبس العلوى المنير ، ممثلا كل ما هو حـــق ، وكل ما هو عدل ، وكل ما هو جمال .

وهكذا بدأ كثير من الناس يعتقدون بحاجة التربيـــة الى الدين ، ويقولون ان التربية اذا كان يهمها أن تدعم صرح المدنية الشامخ ، وأن تقف فى طريق أمواج البربرية المتدافعة، فلتتخذ من الدين صخرة ترتكز عليها » (١) .

ولنتذكر أيضا أن المفكر الفرنسى « اميل دور كايم » حينما حاول أن يقيم التربية الأخلاقية على أساس عقلى غير مرتبط بالناحية الدينية ، لم يستطع الاستغناء عن الدين ، بل قال فى كتابه « التربية الأخلاقية » :

---

(١) تطور النظرية التربوية للاستاذ صالح عبد العـــزيز ، ص ١٨٥ الطبعة الثانية .

«اذا اكتفينا — حين نريد اخضاع الأخلاق أو التربية الأخلاقية للعقل — بأن نجرد الحقيقة الأخلاقية من كل ما هو ديني ، دون أن نعوض عن ذلك شيئا ، فان هذه العملية نفسها ستؤدى بنا الى تجريد الأخلاق من بعض عناصرها الذاتية ، ولا تبقى لنا حينئذ ما يصح أن نطلق عليه اسم الأخلاق الا لون ضئيل شاحب .

ولتفادى هذا الخطر يجب ألا نكتفى اذن بما نقوم به من فصل ظاهرى ، بل يجب أن نذهب بعيدا ، وأن نقصد رأسا الى لب المبادىء الدينية ، لكى نبحث بين ثناياها عن الحقائق الأخلاقية المخبأة ، فنخلصها لكى نعرف كنهها تماما ونحدد طبيعتها الذاتية ، وبذلك يتسنى لنا أن نعبر عنها بلغة العقل ، وخلاصة القول أنه يجب علينا الكشف عن الرموز العقلية لهذه الأفكار الدينية التى ظلت مدة طويلة تجر فى ركابها أهم الأفكار الاخلاقية » (١)

وليس معنى الاستشهاد بهذا النص أننا نوافق « دوركايم » على كل آرائه .

وينبغى أن لاننسى أن نفوس الأطفال مجال خصب لغرس المبادىء الدينية بمهارة ودربة ، فلنبدأ بهم ، على أن يتسع نطاق التربية الدينية شكلا وموضوعا ، وثقافة وفكرا ، بتتابع مراحل الدراسة .

---

(١) التربية الاخلاقية لاميل دوركايم ، ترجمة الدكتور السيد محمد بدوي ، ص ١٠ طبع دار مصر للطباعة .

٥ ـ ينبغى أن يكون هناك حرص موصول دائم ـ فى التربية والتعليم ـ على الربط بين الماديات والروحيات ، فى المواقف المناسبة ، وبالطريقة الحكيمة ، خلال تدريس مختلف العلوم والمواد ٠ وتلزم العناية بايضاح الصلة العميقة بين الدين والعلم ، ليكون الدين تزكية للعلم ، ويكون العلم تأكيدا لمبادىء الدين وحقائقه ، وينبغى أن لا تقتصر هذه العناية على مدرسى الدين والاخلاق ، بل تشمل كل المدرسين بالمقدار الذى يناسب موادهم المختلفة ٠

٦ ـ تلزم العناية بتوثيق العلاقة بين القومية العربيـــة والعقيدة الدينية ، أو بتعبير آخر تلزم العنـــاية بتوضيح الروابط التاريخية والفكرية بين العروبة والاســـلام ، على أساس أن العروبة وعاء الاسلام ، وأن الاسلام روح العروبة ، ومما يستعان به على تحقيق ذلك سعة الانتفاع بالقرآن الكريم في ربط الفرد العربى بالبيئة العربية من ناحية تاريخهـــا وأماكنها وآثارها ، والانتفاع به كذلك فى توطيد اللغة العربية وتوحيد كثير من مفرداتها في الاستعمال بين أبناء العروبة ، والانتفاع به كذلك فى تثبيت مجموعة من القيم الروحـــية والمبادىء الاخلاقية التى تحتاج اليها الأمة العربية ، واذا كان المسلم ينظر الى القرآن على أنه دستور وعقيدة ودين ، فان العربى ـ ولو كان غير مسلم ـ ينظر الى القرآن على أنه وثيقة عربية باقية حفظت على العربية لسانها وبيانها والنمط الأعلى من أسلوبها وتعبيرها ٠

٧ ـ ينبغى الانتفاع بالعنصر القصصى فى القرآن الكريم

وفى السنة المطهرة ، وفى السيرة العاطرة ، فى جوانب من التربية والتعليم ٠

٨ — ينبغى الانتفاع بالتاريخ المشترك للأمة العربية ، والأدب العربى ذى الصبغة القومية العامة فى التربية والتعليم ويترتب على ذلك توحيد المواد القومية فى جميع الوطن العربى ، كالتاريخ والجغرافية والتربية القومية وسير الأعلام

٩ — يجب التزام التدريس باللغة العربية — بصفة أساسية — فى جميع المدارس القومية والمدارس الأجنبية ، بحيث تكون اللغة العربية فى كل المعاهد هى اللغة « الأم » ، ولا يجوز أن تدرس أى مادة من المواد القومية بغير اللغة العربية ، وأن تكون هناك رقابة دقيقة وشاملة ومستمرة على المدارس الأجنبية حتى نطمئن دائما على تحقيق ذلك ٠

١٠ — يجب استكمال تعريب التربية والتعليم فى كل المراحل الدراسية ، بما فى ذلك الكتب والمصطلحات وطرق التدريس ، ولا يتعارض هذا التعريب مع التمكن من اللغات الأجنبية فى نظامها ومجالها ، ولا مع الاستعانة بالخبرة العلمية أو التربوية اذا احتجنا اليها ولم يكن لدينا ما يقوم مقامها ٠

١١ — لكى تثمر التربية ثمراتها الطيبة النافعة تجب زيادة العناية بتوثيق الروابط الروحية والعلمية بين الأستاذ والتلميذ ، على أساس الرعاية الحادبة المخلصة من جهة الأستاذ والاحترام والتوقير من جهة التلميذ ، وصلوات الله وسلامه

على رسوله القائل : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ، ولم يرحم صغيرنا » .

١٢ — يجب التوسع في دراسة أعلام التربية العربية والاسلامية في كليات التربية والمعلمين ، بحيث ندرس حياتهم ومذاهبهم الفكرية ومناهجهم العلمية وآراءهم في التربية والتعليم . وكذلك نختار من كتبهم ما يصلح ليكون مقررا لمطالعة الطلاب .

١٣ — ينبغي أن نتتبع التراث التربوى العربى الاسلامى فى كل تاريخنا العربى ، لنستخلص منه منهجا تربويا عربيا كاملا ، تظهر فيه الشخصية العربية التربوية بكل ملامحها وعناصرها ومقوماتها ، على أساس أن نوفق بين أسس التربية فى تراثنا العربى ومقتضيات أو متطلبات التربية الحديثة التى ننشدها فى الدولة العصرية العلمية التى نتواصى ببنائها .

١٤ — مازال « محو الأمية » بين الكبار والصغار فرضا يطوق أعناقنا ، وتطالبنا به نهضتنا وقوميتنا وتاريخنا ، ولذلك يجب أن تتضاعف الجهود المؤيدة بالأساليب العلمية الحديثة ، للقضاء على الامية فى أرجاء العالم العربى ، بلا تفرقة بين الكبار والصغار ، ولا بين الذكور والاناث .

١٥ — لا بد من انصاف عادل وشامل لرجل التربية والتعليم ، اذ لا يجوز بحال من الاحوال أن يتخلف ماديا أو اجتماعيا عن أى زميل له فى الوطن ، لأنه ينهض باشرف

الاعمال وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام ما معناه : « ليس منا من لم يعرف لعالمنا حقه » • ويجب كذلك أن يكون هناك تأمين لمستقبل المعلم وشيخوخته ، وهذا هو واجب الدولة أولا ، ثم واجب الهيئات المسئولة عن رجال التربية والتعليم •

ولنتذكر أن عبد الحميد الكاتب قد قال يخاطب معاشر الكتاب في عصره ، وهم أقرب الفئات الى المعلمين والمربين على عهدهم : « وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ، ويثوب اليه أمره ، وان أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل تجربته ، وقدم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه ، أحفظ منه على ولده وأخيه » (١) •

* * *

أما بعد ، فما أجدر هذه الأمة العربية المؤمنة بأن تقيم دعائم نهضتها وعزتها على أسس سليمة قويمة من التربية الواعية البصيرة ، والعلم الصحيح النافع ، فقد صدق الأحنف حين قال : « كل عز لم يوطد بعلم فالى ذل مصيره » كان الله جل جلاله لأمتنا على الدوام • وعلى الله قصد السبيل •

---

(١) صبح الأعشى ، ج ١ ص ١٨٦ •

الدين وشباب الجامعات

الدين وشباب الجامعات

من الحقائق الواضحة لكل متبصر أن طلاب الجامعات هم خلاصة شبابنا المثقفين الذين يوكل اليهم النهوض بشئون كثيرة جليلة فى المجتمع عقب تخرجهم ، واتمام دراستهم الجامعية • وهم على هذا الأساس عماد النهضة ومعقد الأمل وموطن الرجاء ، وكلما زدنا توفيقا فى صياغتهم الصياغة السليمة القويمة زدنا فى خيرهم وخيرنا ، واذا كانت المعرفة والمدركات العقلية والثروة الذهنية ذات أهمية كبيرة فى تكوين الانسان ، فان الجانب الروحى الأخلاقى لا يقل شأنه عن تلك الأهمية ، ان لم يزد عليها •

وليس هذا حديث رجل الدين الداعى اليه بحكم تخصصه أو وظيفته ، بل هو أيضا حديث رجل الوطن والمجتمع ، الذى يتولى القيادة والتوجيه ، فاذا كان العالم الدينى يقول أنه لا حياة بغير دين ، وان الدين ضرورة ، فان « الميثاق الوطنى » يقول : « ان القوى الروحية والقوى المادية ضرورتان لبناء

المجتمع ، وانه يجب علينا حتى يكون هذا المجتمع قوى الجسم والعقل ، سليم الروح والنفس ، أن يقوم التوازن بين ماديات هذا المجتمع وروحانياته المستمدة من القيم الخالدة النابعة من الدين » . ويقول : « اذا كانت الأسس المادية لتنظيم التقدم ضرورية ولازمة ، فان الحوافز الروحية والمعنوية هى وحدها القادرة على منح هذا التقدم أنبل المثل العليا ، وأشرف الغايات والمقاصد » .

ونحن — بحمد الله وفضله — أمة متدينة منذ أقدم العصور منذ ردد كهان « طيبة » فى معبد « آمون » خلال أناشيدهم الدينية اليومية قولهم وهم مازالوا فى طفولة دينية :

« الله هو الحق ، ويحيا على الحق ، انه الملك الحق ، الله هو الحياة ، ولا حياة للناس بدونه ، هو البداية ، هو الواحد الأحد » (١) ... حتى جاء دين الله الحق الخاتم الجامع ، حيث يقول القرآن الكريم : **«فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون»** .

ولا شك أن أثر الدين عميق وثيق فى الفرد والجماعة ، حتى فى الفرد الذى قد يهمل المحافظة على القيام بشعائره الدينية ، حيث لا نستطيع أن نجزم بتجرده من الفطرة الدينية المستكنة بين جوانحه ، والتى قد يغطيها أو يحجبها جهل

---

(١) كتابى « الدين والميثاق » ص ١٣ . الطبعة الثانية .

أو انحراف أو تأثر بعامل من العوامل التى تبعده عن الصراط ذات اليمين أو ذات الشمال .

ولا ريب فى أن هناك فرقا واسعا بين تدين المثقف وتدين غير المثقف ، لأن التدين ترسخ قواعده ، وتستقر دعائمه اذا اشترك فى دعمه وجدان القلب وادراك العقل ، فلو تهيأت للانسان المثقف أسباب المعرفة الدينية والاعتقاد السليم ، لسار على صراط مستقيم فى ثقة واطمئنان ، ومن هنا تظهر أهمية الجانب الدينى الذى ننشده فى صفوة المتعلمين من أبنائنا ، وهم طلاب الجامعات .

ومن عيوبنا التى طال عليها الأمد فى حقولنا التعليمية والثقافية أننا لا نحسن الجمع بين الثقافة الدينية والتربية الدينية ، مع أن الدين فى جوهره عقيدة وعمل وسلوك ومعاملة وأخلاق ، قبل أن يكون معلومات نزحم بها الذاكرة ولا نؤثر بها فى توجيه النفس ، وقد نتردد طويلا قبل أن نزعم لأنفسنا — أو لغيرنا — أننا نربى أولادنا فى مدارسنا — قبل مرحلة الجامعة — تربية دينية عملية سلوكية ، ولكننا قد نتعجل القول بأننا نحشد فى أذهانهم معلومات دينية مختلفة .

ومع اقتصارنا على هذا الحشد فى الغالب ، لا نستطيع أيضا أن نزعم أن الطالب قبل دخوله الجامعة قد أحاط بأمور دينه علما ، أو عرف موقف الدين وكلمته فى مشكلات الحياة الفردية والجماعية ، ويزداد الأمر تعقدا وخطورة حينما نرى الطالب يقطع كل صلته بالثقافة الدينية والتربية

الدينية ، وهو يخطو خطواته الأولى داخل رحاب الجامعة ؛ مع أن المرحلة الجامعية تتطلب أكثر من غيرها رصيدا كافيا من الثقافة الدينية الواسعة ، بسبب ما يثيره الجو العلمى داخل الجامعة من أفكار وآراء ومذاهب تتطلب كلمة الدين ، لتعصم الطالب من الزلل أو الشطط فى التفكير أو السلوك .

واذا كانت مصادر التوجيه الدينى تتمثل فى الخطبة الدينية ، والمحاضرة الدينية ، والفتوى ، والمجلة الدينية ، والكتاب الدينى ، والندوة الدينية ، والمواد الدينية فى وسائل الاعلام الأخرى ، فانه من الواضح أن هذه المصادر لا تعرف طريقها اللائق بها فى الحقل الجامعى الذى تستبد بساحته وعنايته شواغل أخرى عديدة .

ولا يراد من وراء هذا القول أن يتحول الحقل الجامعى الى معبد دينى ، أو الى ساحة مسجد ، أو الى جمعية روحية . ولكننا نريد أن نقول ان التقدم العلمى المعاصر قد بهر الأبصار والبصائر ، وهناك رواسب فكرية موروثة ، وهى غير سليمة ، تقول بالعداوة بين الدين والعلم ، وهذا الزعم بحاجة الى التفنيد ، وتفنيده يتطلب اقترانا بين الاغتراف الواسع من ينابيع العلم ، مع الانتهال النقى من مناهل الدين الصافية ، وحينئذ يتبين أنه ليس هناك عداوة ما بين العلم الصحيح والدين الالهى الكريم ، بل هناك صداقة متينة عميقة بينهما ، من وألى ثمراتها أن تدعم القيم الدينية بنسمات العلم ، وأن نزكى العلم المادى بنفحات الدين الالهى ، فيكون

منا رجل العلم المتدين ، ورجل الدين العالم ، وبذلك يلتقيان فى منتصف الطريق ، للازدياد من العلم ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، وللاعتصام بحبل الدين القويم الذى يهدينا الى سواء السبيل .

ومن هنا لا نتصور أن ندعو الى تعليم أبنائنا كيفية القيام بالشعائر الدينية وهم فى الجامعة ، لأن هذا واجب يجب أن نؤديه اليهم أحسن الأداء قبل دخولهم الجامعة ، ولكن يجب علينا فى حقل الجامعة أن نقنع أبناءنا بالصلة الوثيقة بين الدين والعلم ، وهذا يتطلب سلوك وسائل الاقناع العلمية والعقلية ، لدعم قيم الدين وتعاليمه ، ويتطلب القيام بدراسات للنواحى الاجتماعية والانسانية والعلمية والأخلاقية فى الدين ، ومن خلال الأشعة التى تبثها هذه الدراسات الواعية الواسعة ، يتمكن الطالب من أن يعتز بدينه ، وان يتحصن بعقيدته ، حيث يغنيه تراثه الدينى والروحى عن التطفل على موائد سواه ، أو الاستعارة من غيره .

وتحقيق هذا يحتاج الى فتح الباب أمام رجل الدين العالم المثقف البصير بأساليب التوجيه الدينى العلمى ، كى يؤدى واجبه نحو عرض التعاليم الدينية عرضا مقنعا للعقل ، قبل أن يكون مثيرا للعواطف فحسب .

ولعل هذا المعنى قد أشار اليه « الميثاق » حين قال فى الباب السابع منه : « ان واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته . ان جوهر الرسالات

الدينية لا يتصادم مع حقائق الحياة ، وانما ينبع التصادم في بعض الظروف من محاولات الرجعية أن تستغل الدين ضد طبيعته وروحه لعرقلة التقدم ، وذلك بافتعال تفسيرات له تتصادم مع حكمته الالهية السامية » .

وينبغي أن يتقرر في أذهاننا أن التقدم العلمى الهائل يلزم أن يكون معه تقدم روحى مماثل أو مقارب ، وأن الحرية الواسعة اليوم للشباب تستلزم ان يكون معها حصانة ذاتية خلقية ناهضة على مقومات روحية ومعتقدات دينية ، وأن الصبغة التى سادت العالم فأكسبته كثافة حسية ثقيلة تحتاج الى صبغة معنوية شفافة تلطف حدة هذه الكثافة ، والجو الجامعى صالح ـ بالنية الطيبة والعزيمة الصادقة والاخلاص العميق ـ لتحقيق هذا التناسق الواجب بين مطالب البدن ومطالب الروح ، أو بين ادراك العقل ووجدان القلب .

وهناك عدة ملاحظات يجب أن نرصدها فى الحقل الجامعى قبل أن نتعرض لما ينبغي أن يكون فى هذا الحقل من الجانب الدينى :

أولا ـ الطلاب يدخلون الجامعة وليس لديهم رصيد كاف من التربية الدينية ، ولا من المعلومات الدينية ، لأن المراحل الدراسية السابقة لمرحلة الجامعة لا تحقق ذلك على الوجه المنشود .

ثانيا ـ كثير من الطلاب الجامعيين يتشككون فى كثير من المعتقدات الدينية ، بسبب قلة الثقافة الدينية كما سبقت

الاشارة ، وبسبب اتساع الثقافة العلمية المادية غير المربوطة بالدين ، وبسبب انتشار المفهوم الخاطىء عند الكثيرين ، وهو أن جو البحث العلمى الموضوعى لا يتسق مع المعتـــقدات الدينية .

ثالثا ـ هناك صورة مشوهة للتعاليم الدينية فى أذهان كثيرين من الطلاب ، كما هى مشوهة فى أذهان غيرهـــم من أفراد الشعب ، وهى الصورة التى يفهم منها أن الدين تزمت وتعنت وتشديد وحرمان ، وأنه لا يتفق مع الحياة المدنية ولا مع البيئة الحضارية المتقدمة .

رابعا ـ هناك انعدام ـ أو ضعف شديد على الأقل ـ فى العلاقات الروحية الأبوية الكريمة بين الأساتذة والطلاب ، وقد عاون على ذلك فرص الحرية الواسعة الممنوحة للطلاب ، وما ساد شباب العالم كله من تطلع الى التحرر والانطلاق والتمرد على هذه العلاقات الروحية التى كانت موجودة فى الماضى بين المعلم والتلميذ ، أو بين الأستاذ والطالب ، وقد عاون على حدة الشعور بفقدان هذه العلاقات فى الجانب الدينى أن بعض الاساتذة أو الاداريين لا يعنون بالمظاهر أو المعتقـدات الدينية ، وكدت أقول ان بعضهم يسخرون منها ، وكان لهذا الاستخفاف أثره الوبيل فى نفوس الشباب ، فكثير منهـــم قلدوا هذا البعض من الأساتذة ، والقلة المتدينة من الطلاب صارت تشعر بأنها غريبة مضطهدة ، أو ينظر اليهـــا بعين الاستخفاف والاستهزاء ، مما يؤدى الى التعقد ، أو رد الفعل والانتكاس .

خامسا ـ الحقل الجامعي لا يوجد به النشاط الديني القويم الكافي لمتطلبات النواحي الروحية والأخلاقية ، فلا يوجد العدد الملائم من المساجد ، والموجود منها تنقصه العناية والرعاية ، وليست هناك أي مراعاة لمواعيد الصلاة ـ وهي فريضة يومية متكررة في كل يوم وليلة ـ فلا يدخل في التقدير اطلاقا ملاحظة هذه المواعيد عند توقيت المحاضرات أو تحديد بدايتها ونهايتها .

ولا توجد العناية الكافية للاحتفال بالمناسبات الدينية على وضع جدي مثمر ، أو لعقد الندوات الدينية المفتوحة ، كما أنه لم تبذل جهود لربط الطلاب بجمعيات دينية داخل الحقل الجامعي ، كما لم تبذل جهود واعية وقويمة لعقد الصلة المستقيمة بين الطلاب والمؤسسات الدينية التي تصلح لهم ، وتفيدهم ببصيرة في جوانبهم الدينية والأخلاقية والاجتماعية .

كما لا توجد عناية كافية لعلاج مشكلة انعدام الكتب الدينية أو ضآلتها على الأقل ، فالطالب الجامعي لا يتوافر له في الغالب الحصول على الكتب الدينية القويمة في تفكيرها وتصويرها وتعبيرها .

سادسا ـ هناك اتساع ما في فتحة الباب الذي تدخل منه المبادىء العقائدية الوافدة ، والاتجاهات الفكرية المادية الطليقة ، وهذا الدخول يحدث باسم البحث العلمي أحيانا ، وباسم الرغبة في توسيع الأفق الفكري أحيانا ، وبغض ما

يدخل يتعارض فى وضوح وصراحة مع المعتقدات الدينية ، ولو كان هناك رصيد ثقافى دينى سابق ، أولو كانت هناك حصانة دينية قائمة على الدراسة والفهم والتعمق والاقتناع ، لما تجسمت خطورة الاتساع فى فتح هذا الباب .

سابعا ـ هناك كثير من الطلاب يريدون فى الحاح أن يكون أمامهم من يستشيرونه فى الأمور الدينية فى وضوح وصراحة ولكن هذا لا يتيسر لهم الا نادرا ، وفى مناسبات عارضة قد تكون غير مرتبطة بالحقل الجامعى .

ثامنا ـ هناك من يسىء استغلال الاختلاط بين الطلبة والطالبات فى الحقل الجامعى ، ويعاون على خطورة هذا الاستغلال أنه لم يكن هناك تمهيد سابق مناسب لاستقبال تجربة الاختلاط بوعى وخلق وأدب ، كما أنه ليست هناك رقابة موجهة ، حتى ولو كانت مستورة أو غير مباشرة .

ويتصل بهذا أننا حتى الآن لم نبذل أى جهد جدى عملى للحد من تيار التبرج الفاضح بين كثير من الطالبات ، فيما يتعلق بهيئة الثياب أو الزينة أو السلوك ، وكل يوم يمر يأتينا بجديد خطير فى هذا الباب ، وكأن سياسة « الرضا بالواقع مهما كان » ستؤدى بنا الى ما لا تحمد عقباه بحال من الأحوال .

تاسعا ـ يوجد نشاط فنى فى الحقل الجامعى يقدم بصور مختلفة ، وفى مناسبات متعددة . وكثير من ألوان هذا النشاط تستبد به فكرة « الفن للفن » فتفتح الباب أحيانا

لتمثيليات غير قويمة ، أو رقصات مثيرة ، أو أغان مبتذلة ، أو استغلال للفن في الاثارة الجسدية ، حتى صار واضحا أن كثيرين في هذا الوادى يخلطون خلطا خبيثا بين التسلية والاثارة .

ولقد يقدم بعض هذا النشاط الفنى تحت عنوان رعاية الشباب ، وبذلك تضطرب المقاييس والموازين فى عقل الشاب المرعى وفهمه ، فلا يستطيع التفرقة البصيرة بين ما هو فن أصيل فيه تهذيب وتصعيد ، وما هو استغلال رخيص للفن فى الاثارة والاستعداد للانحراف .

واذا كان « تقرير الميثاق » يقول انه « يجب أن يشمل التخطيط وضع خطة عامة متكاملة لرعاية الشباب بدنيا ودينيا وسياسيا ، لنضمن له سلامة الجسم والدين والخلق » (١) فاننا لا نستطيع أن نقرر أن هذه الخطة قد تناولتها يد التطبيق بالتنفيذ ، وخاصة ما يتعلق بناحية الدين والأخلاق .

وليس هناك تكافؤ أو توازن بين الجهود الكبيرة الضخمة التى تبذل من أجل الشباب فى الرعاية البدنية والرياضية والفنية ، والجهد القليل الضئيل الذى يبذل من أجل الدين والأخلاق .

عاشرا ــ قد يكون من الخير أن نتصارح ونتكاشف بأن عددا من الطلاب يتناولون المسكرات والمخدرات ، ومنهم من يتباهى

---

(١) كتاب « الدين والميثاق » ، ص ١٣١ .

بذلك ، وبعضهم يصل حد الأدمان ، وهناك عدد منهم أكبر وأضخم يدمنون التدخين ، ويكون هذا التدخين على حساب صحتهم وقوتهم ومتطلباتهم الأساسية الأخرى ، ومنهم من ينحرف في سبيل الحصول على تكاليف هذا الادمان .

وهناك نسبة من الطلاب يتعرضون للاصابة بالأمراض التناسلية ، ومع أن عنصر العدوى الوراثية يمكن ملاحظته فى هذا المجال ، يبقى هناك سبب الانحراف الجنسى فى وجود هذه الأمراض .

وقد أشارت الى هذه العلل الدراسات والبحوث التى أجريت عن « احتياجات طلبة وطالبات الكليات والمعاهد العالية » (١)

ولعله مما ساعد على ايجاد هذه العلل قطع الصلة نهائيا بين الجامعة وأسرة الطالب ، بدعوى أن الطالب قد شب عن الطوق ، وأصبح لا يليق به أن يخضع للرقابة المتبادلة بين الجامعة والبيت .

ويضاف الى ذلك سوء القدوة فى البيت غالبا ، وسوء التربية والنشأة ، وضعف الرقابة فى المحيط الدراسى ، واتساع نطاق الحرية بين الشباب ، وعدم العناية بترسيخ القيم الدينية فى النفوس ، وسوء القدوة من بعض المشرفين

---

(١) المجلة الاجتماعية القومية ، عدد يناير سنة ١٩٦٩ .

علميا أو اداريا ، فكل هذه الأسباب قد فسحت نطاق الـداء فاستفحل ٠

حادى عشر ــ هنـاك ضـعف فى الصـلة بين طـلاب الجامعات وجامعة الأزهر التى مازالت ـ برغم تطورها ــ تمثل المثابة الكبرى التى تأوى الى حماها الثقافة الدينية والروحية، وقد كان المظنون أن قانون تطوير الأزهر الشريف سيهيىء فرصا كبيرة ومثمرة لتوثيق العلاقة بين طلاب الجامعـات وجامعة الأزهر ، ولكن ذلك لم يتحقق حتى الآن ٠ فالطلاب الذين درسوا فى مدارس مدنية ، ثم دخلوا الأزهر ، لم يعرفوا شيئا ذا بال عن حقول الجامعات الأخرى ، والطلاب الذين درسوا فى المعاهد الدينية الأزهرية ، وجمعوا بين مواد الدراسة فى هذه المعاهد ومواد الدراسة فى المدارس المدنية ، لم تفتح أمامهم الأبواب حتى الآن لدخول كليات الجامعات الحديثة ، مع أن قانون التطوير ينص على حقهم الكامل فى هذا ٠

وقد يظن ظان أن هذه الملاحظة لا تدخـل فى صمـيم الاحتياجات الدينية لطلاب الجامعات ، ولكن اعادة النظر فى الأمر توحى الينا بأن ضعف الصلة بين الجامعات وجامعة الأزهر قد أدى الى ضيق نطاق الرسالة التى يمكن أن ينهض بها الأزهر الشريف فيما يتعلق بطلاب الجامعات المدنية من الناحية الدينية ، كما أدى الى ضيق نطاق التعاون العلمى الدينى ، أو الدينى العلمى ، بين الجامعات وجامعة الأزهر ،

واذا كانت ظروف جامعة الأزهر ـ في دور انشائها وتطويرها ـ قد فتحت الباب واسعا لعشرات من أساتذة الجامعات المدنية ليشغلوا أماكن علمية ملحوظة فى جامعة الأزهر ، فان مثل هذا لم يتهيأ أمام أساتذة الأزهر ، وليس هذا الكلام ايحاء بحتمية التماثل فى التبادل ، وذلك لاختـــلاف الظروف والدواعى ، ولكن المراد هنا هو رصد حالة تستحق البحث والتفكير .

* * *

واذا كنا قد تعرفنـــا ـ فيما سلف ـ الى طائفة من الملاحظات التى رصدناها فى الحقل الجامعى، والتى قد تختلف وجهات النظر فيها شيئا من الاختلاف ، فانه يسهل علينا فى ضوء هذه الملاحظات أن نقدم طائفة من المقترحات ، قد تعين على تحقيق الكثير مما نرتجيه فى الجانب الدينى بالنسبـة الى طلبة الجامعات :

اولا ـ يلزم تقوية عنصرى الشـقافة الدينية والتربيـة الدينية السلوكية العملية فى المرحلتين الاعدادية والثانوية من التعليم ،تمهيدا للمرحلة الجامعية التى تحتاج كما أوضحنا الى رصيد دينى سابق .

ثانيا ـ يلزم أن تكون هناك دراسات اسلامية فى كل كلية من الكليات الجامعية ، وكل كلية وظروفها ومناهجها ، على أن تعنى هذه الدراسات الدينية بالمشـكلات الاجتـماعية والاقتصادية والانسانية التى يكون لها علاقة بالدين ، أو

يكون للدين فيها رأى أو موقف ، وعلى أن يقوم بتلك الدراسات أساتذة متخصصون ، يحسنون الجمع بين الدراسة الدينية الواسعة ، والثقافة العلمية البصيرة ، وحسن التأتى فى عرض الموضوعات وفى الوصول الى مرتبة الاقناع الوطيـــد للطلاب .

ثالثا ـ يلزم بذل جهود علمية ودينية مخلصة لتبيـــان مظاهر التوافق الرشيد بين مطالب الحياة وتعاليم الدين ، ولتبيان مظاهر التعاون الأصيل بين الدين والعـــلم ، وهذا يستدعى أن يعنى أساتذة المواد العلمية الدراسية الجامعية ، كمواد النبات والحيوان والجغرافيا والطبيعة والفـــلك ، بالإشارة عند المناسبات الملائمة الى مظاهر التوافق بين العلم والدين ، وبهذا يزداد الطالب اعتزازا بدراسته العلمية التى تزيده ثقة بمعتقداته الدينية .

رابعا ـ ينبغى أن يكون هناك رائد دينى متخصص فى كل حقل دراسى جامعى ، ويكون هذا الرائد مسئولا بطريقة مباشرة عن الجانب الدينى بين الطلاب ، كما يكون مستشارا لهم فى أمورهم الدينية ، وبقدر الدقة فى حسن اختيار هؤلاء الرواد يكون الأمل فى الحصول على الثمرة المرجوة من وجودهم فى هذا الحقل .

خامسا ـ يلزم أن تبذل جهود صادقة ومخلصة وواسعة لحسن الربط بين رجال العلم وعلماء الدين ، فلا يكون لدينا علماء جامعيون لا يعطون الدين ما يجب له من عناية ، ولا

يكون لدينا علماء دين لا يعطون الناحية العلمية حقهـا من الرعاية ، بل يكون عندنا علماء متدينون ، ومتدينون علماء .

ويلزم أن نبذل مثل هذه الجهـود لحسن الربط بين الدين والفن ، وخاصة الفن الذى تكون له صلة ما بالحقـل الجامعى ، بحيث يصبح الفن رائدا الى اثارة نبيل العواطف وكريم المشاعر ، وبحيث لا يشرد الفن عن رحاب الدين ، كما لا ينفر الدين من التقدير للفن ، ولقد قلت منذ عهد بعيد ، ومازلت أقول : « اذا تدين رجل الفن وتفنن رجل الدين التقيا فى منتصف الطريق للاعتزاز بالفن السليم ، ولخدمة الدين القويم » .

وكذلك ينبغى أن نربط بين انشطة الطلاب الرياضيـة ونحوها بالدين ، وما أكثر ما قلت : انه لو كان الأمر بيدى لجعلت فى كل ملعب مسجدا ، وجعلت الى جوار كل مسجد ملعبا ، وبذلك يكسب شبابنا قوة فى اجسامهم عن طريق الرياضة ، ويستجيبون لصوت الأذان فيؤدون حق الله عن طريق المسجد (١) .

سادسا ـ تلزم العناية فى الحقل الجامعى بالصحـافة الدينية ، والكتب الدينية ، والمنشئات الدينية ، والشعـائر الدينية ، وبالندوات والمحاضرات الدينية ، وبالاحتفـال بالمواسم والمناسبات الدينية

---

(١) كتاب « وسائل تقدم المسلمين » ص ١٣٩ ، طبعة سنة ١٩٥٩ م .

سابعا ــ تلزم العناية بانشاء المكتبة الدينية في الحقل الجامعي ، فان لم يتيسر ذلك الآن ، فلا أقل من انشاء ركن للكتاب الديني في مكتبات الكليات ، ومكتبات الجامعات ، وحبذا لو كان هناك أمين متخصص في الكتب الدينية يعاون الطلاب في إرشادهم الى المراجع الدينية ، وييسر لهم وسائل الانتفاع بما يطالعون في هذه الناحية .

ثامنا ــ اشاعة الاحترام للطلبة والطالبات الذين يمتازون بالسلوك الديني الأخلاقي في المحيط الجامعي ، واتخاذ مايلزم لمنع تعريضهم لمواقف التندر أو السخرية أو الاستخفاف ، وهذا قد يستتبع التفكير الجدي في وضع تقاليد جادة وقويمة وكريمة للسلوك الجامعي ، على أن تستهدي هذه التقاليد بهدي الدين ، ويمكن عن طريق هذه التقاليد أن نعالج موضوع التبرج بين الطالبات ، وموضوع الاستهتار عند بعض الطلاب ، وموضوع ما ينبغي أن تقوم عليه العلاقة بين الطالب وزميلته في حدود الإحترام المتبادل ، والاستمساك بالأخلاق الفاضلة والعادات السليمة .

تاسعا ــ عقد مسابقات بين طلاب الجامعات في موضوعات دينية تستدعي الدراسة والبحث وسعة الإطلاع ، على أن ترصد لهذه المسابقات جوائز حافزة ، وعلى أن تحاط هذه المسابقات بالاحترام والاهتمام والعناية من المسئولين .

كما ينبغي تنشيط الرحلات الدينية ، ومشاهدة الآثار الدينية ، واستغلال هذا النشاط لربط الطلاب فكريا وروحيا بالأعلام البارزين من أبطال الاسلام ومفكريه .

عاشرا ـ فتح الباب أمام مسرح أسلامى اخلاقى وطنى اريخى اجتماعى ، ينشأ فى رحاب الجامعة ، وينمو مع الأيام ، يحقق نوعا من التوازن الضرورى بين ألوان المسارح المختلفة ما ينبغى أن يزدهر ويتوطد ، وهو المسرح الاسلامى الاخلاقى اجتماعى .

حادى عشر ـ المبادرة الى الأخذ بنظام الأسر بين الطلاب ، حيث نحرص على اختيار العناصر الطيبة منهم ، ليكونوا نواة جيل مثقف متدين مستقيم ، وبحيث نحرص كذلك عـلى مكين العناصر المعتزة بالقيم الروحية والمبادىء الأخلاقيـة ين الأساتذة من اتخاذ أماكنهم القيادية التوجيهية بين أبنائهم لطلاب ، لتحصينهم عقليا وروحيا ضد النزعات المتحـــللة و الملحدة أو المنحرفة .

ثانى عشر ـ تهيئة الوسائل الكافية لتمكين الطالبات من سباب الثقافة الدينية المناسبة ، بحيث لا يكون هناك أى تفريق بين الطلبة والطالبات فى توفير الخدمات الكفـــيلة بتحقيق الاحتياجات والمتطلبات الدينية والروحية بين الجميع .

* * *

لا أستطيع أن أزعم لنفسى ـ فضلا عن أن أزعم لغيرى ـ أننى ذكرت فى هذه العجالة ما يكفى أو يشفى ، ولكنى أستطيع أن أؤكد أنه اذا أرادت الجامعات فى جد وصدق أن تعالج الجانب الدينى بين طلبتها وطالباتها ، بمـا يفيـدهم ويصونهم ، فانها قادرة بعون الله على تحقيق ما تريد .

الدعوة إلى الإسلام

الدعوة الى الاسلام

ان كلمة « التبشير » فى لغة القرآن الكريم تفيد معنى الاخبار بما يشرح ويفرح ، يقال : بشرت الرجل اذا أخبرته بأمر سار يبسط بشرة وجهه ، وذلك لأن النفس اذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء فى الشجر . ويقال للخبر السار : البشارة أو البشرى . قال الله تعالى : « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » . والبشير أو المبشر هو الذى يبلغ الخبر الطيب أو ما فيه الخير .

ولعل أمة القرآن هى أحق الأمم بصفة « التبشير » لأن كتاب ربها تبارك وتعالى قد حدثها كثيرا عن التبشير ، ورفع من شأنه وقدره ، فأخبرها أن ربها جل جلاله يبشر بألوان من البشرى ، ففى سورة آل عمران يقول : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى » . وفى السورة نفسها : « اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم » ، وفى سورة التوبة : « يبشرهم

ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم » . وفي سورة الصافات : « وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين » .

وأخبرها أيضا أن التبشير وظيفة القرآن المجيد ، ففي سورة الاسراء : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقـوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا » وفي سورة الكهف : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ، ماكثين فيه أبدا » .

وأخبرها أن التبشير أمر من ربها لنبيها ، ففى سـورة البقرة : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » . وفى سورة يونس : « أكان للناس عجبا أن أوحينا الى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » ، كما ورد فى القرآن قوله: « وبشر الصابرين . وبشر المؤمنين . وبشر المخبتين . وبشر المحسنين » .

وأخبرها أن التبشير وظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام، ففي سورة البقرة : « انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » . وفى سورة الفرقان : « وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا » . وفى سورة الأحزاب : « ياأيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيـا الى الله باذنه وسراجا منيرا » . وفى سورة سبأ : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » .

وأخبرها أن التبشير وظيفة كل الأنبياء والمرسلين ، ففى سورة البقرة : « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » • وفى سورة النساء : « رسلا مبشرين ومنذرين » • وفى سورة الأنعام : « وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين » • ومعنى هذا كله أن الإسلام العظيم دين تبشير ، والتبشير دعوة وتبليغ ، والقرآن المجيد يقول : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » • ولا يمكن للدين الالهى الخاتم الجامع أن يستكمل رسالته ووظيفته فى الحياة والأحياء دون دعوة وتبليغ وتبشير ، وهذا أحد المربين يقول : « ان الدين الذى لا يعمل أهله على التبشير به والدعوة اليه يفقد صفة الحياة » • وكلما كان الدين صادقا منصفا جذابا محبوبا كانت الدعوة اليه أو التبشير به سببا قويا لسطوعه وذيوعه ، وانتشاره وازدهاره ، وليس كالاسلام دين يفتح مغاليق القلوب اذا تهيأت أمام مفاتيحه الربانية السبل الى هذه القلوب ، ولعل هذا هو ما جعل السير توماس أرنولد يقول سنة ١٩١٣ م فى كتابه « الدعوة الى الاسلام » هذه العبارة : « ان جمعيات التبشير المسيحية تبذل اهتماما زائدا بموضوع نشاط الدعوة الاسلامية » •

ومع هذا التيسير الالهى العجيب أمام أبناء الاسلام للتبشير بدينهم السمح الكريم ، تأخرنا كثيرا فى العناية بأمر هذا التبشير والطب له وعلاجه ، حتى طال علينا الأمد فى هذا الباب ، فقست منا القلوب ، وتبلدت الجنوب • ومنذ ستين عاما من يومنا الحاضر وفى شهر المحرم ١٣٢٩ هـ (يناير

١٩١١ م) جاءت فى مجلة « المنار » عن الدعوة الى الاسلام هذه الكلمات :

« الدعوة الى الاسلام فريضة اذا تركها المسلمون يكونون كلهم عصاة لله تعالى مستحقين لعذابه ، واذا قام بها بعضهم سقط الحرج عن الباقين . والدفاع عن الاسلام عند ظهور الشبه والقاء الشكوك فى عقائده وأصوله فرض أيضا ، فاذا سكتوا عنه حيث يظهر كانوا عصاة لله تعالى مستحقين لعذابه واذا قام به بعضهم ، وحصلت بهم الكفاية ، سقط الاثم عن الباقين .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند الحاجة من فرائض الكفاية أيضا ، فاذا سكت المسلمون عنه ، حيث يترك المعروف من الفرائض والسنن ، ويظهر المنكر من البدع والمعاصى . كان جميع المسلمين هناك آثمين مستحقين لعذاب الدنيا بذهاب عزهم ومجدهم ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون ، واذا قام به من تحصل بهم الكفاية سقط الحرج عن الباقين .

هذه مسائل مجملة ، مجمع عليها بين المسلمين الذين يعتد باسلامهم ، ولها تفصيل وجزئيات معروفة فى مواضعها من كتب الدين بشروطها وأدلتها . وقد أهملت هذه الفرائض فى زماننا هذا اهمالا لم يسبق له نظير ، كما أن الحاجة اليها قد اشتدت اشتدادا لم يسبق له نظير فى تاريخ الاسلام .

فشا الجهل بين المسلمين وكثرت فيهم البدع والخرافات وقل الوعاظ والمعلمون الذين يتصدون لإرشاد العامة ، او

فقدوا اللهم الا الدجالين المحتالين على التجارة بدينهم ، وانبثت دعاة النصرانية فى جميع شعوبهم يشككونهم فى دين الاسلام ويطعنون فى كتابه المنزل وفى نبيه المرسل ، ويبثون مطاعنهم بالخطب فى المحافل العامة ، والتعليم فى المدارس الخاصة والوعظ فى الملاجىء والمستشفيات ، وبكتب ورسائل يطبعونها وينشرونها فى الناس ، وأكثر المسلمين عوام أميون ، لا يميزون بين الحق والباطل ، ولا بين الصادق والكاذب مما يعزى الى دينهم والى علمائهم ، ووراء ذلك أموال تبذل للمرتدين ، تغر الطامعين الجاهلين .

فصار من الواجب المحتم عليهم فى كل البلاد أن يقاوموا هذه الشكوك والشبهات دفاعا عن دينهم ، وأن لا يكتفوا بالدفاع كما هو شأن الضعيف ، بل يزيدوا عليه تعليم عامة المسلمين حقيقة دينهم ، ويدعوا غير المسلمين ولا سيما الوثنيين الى هذا الدين القويم : دين العقل والفطرة المصدق لجميع الرسل ، الجامع بين مصالح الروح والجسد ، المؤدى الى سعادة الدنيا والآخرة » .

هذا كلام قيل عن الأمة الاسلامية منذ ستين عاما ، وقد يكون هناك تغيير أو تبديل حدث فى بعض الملامح الخارجية ، أو الأشكال الظاهرية ، أو الأمور الجزئية ، ولكن القضية ما زالت هى القضية ، وهى أن أبناء الاسلام فى أرجاء البلاد الاسلامية لا يحسنون الدعوة اليه ، ولا يحسنون الدفاع عنه ، ولا يحسنون الترغيب فيه ، ولا ينهضون بتبعة التبشير به ،

مع أن الاسلام عقيدة ودعوة ، وهو ايمان وتبليغ ، وهو صلاح واصلاح ، وهو استجابة وتبشير ، وهو دين يستجيب له العاقل بأيسر النداء أو الدعاء ، ولو نظرنا فى تاريخ الاسلام لتجلت لنا فيه ظاهرة عجيبة ، وهى أن كثيرين من الأعداء الذين حاربوا المسلمين ، أو اعتدوا على أرضهم ، أو ناصبوهم العداء ، عادوا فأسلموا وصاروا من جنود الاسلام ، لما عرفوا فيه من الحق والصدق ، ويتجلى ذلك بوضوح فى مثلين ، هما السلاجقة والتتار ، وأغلب الظن أن مرد هذا يعود الى ان المسلمين الذين خالطوا هؤلاء تهيأت لهم الفرصة ليبشروا بدينهم عن طريق أعمالهم وأحوالهم ، فأثروا خير التأثير فى غيرهم .

وبينما طال نوم المسلمين خلال قرون عن واجب التبليغ والتبشير بدينهم على المستوى اللائق بهم ، اجتهــدت فى التبشير بغير الإسلام دول مثل فرنسة وأنجلترة وأمريكة وهولندة ، وصار هناك مئات الملايين التى تنفق على هذه الجهود التبشيرية التى تغلغلت فى بلاد الاسلام ، ولا بد لنا من أن نفتح عيوننا على سعتها ، لكى نتصور ضخامة الوسائل المتاحة لهذه الجهود التى تناصب الاسلام العداء فى كثير من الأحيان .
ولم تقتصر هذه الجهود على المجال الدينى الخالص ، بــل اصطنع الاستعمار الظاهر والخفى لنفسه من هذه الجهــود عصا وركيزة ، أو قل اتخذ من هذه الجهود مطايا يحقــق بها من وراء ستار اغراضا استعمارية خبيثة وخطيرة ، حتى صار من الحقائق المرة أن يقال : ان الاستعمــار السيــاسى

لرسمى الظاهرى قد خرج من كثير من بلاد الاسلام ، وبقى بيها الاستعمار الفكرى والثقافى والدينى الذى جاء عن طريق ستغلال الاستعمار لحركات التبشير فى هذا المجال .

وهذا التبشير الاستعمارى الأجنبى الدخيل يتخذ لنفسه احيانا شكل « الدراسات الاستشراقية » حيث يبث السموم خلال هذه الدراسات مما ينقض الأسس الدينية فى نفوس كثير من المسلمين ، ومتى تهدمت هذه الأسس أمكن شحن هذه النفوس بغير الاسلام ، فهؤلاء الاستعماريون الخبثاء لا يدعون الناس الى دين غير دينهم بطريق مباشر ، بل يقوضون فى صدور المسلمين قواعد الاسلام واحدة بعد أخرى ، عن طريق الدس والتشكيك ، ويشككون به أصحاب العقول الضعيفة فى معتقداتهم ، حتى اذا أصابتهم الحيرة ، جاءت طائفة أخرى من المبشرين الاستعماريين ، فأدخلت هؤلاء المنهارين نفسيا وعقليا فى دينها ، وهكذا دواليك ، فاذا لم يستطع المبشر الاستعمارى أن ينشر دينه بطريقته وقف فى وجه الاسلام ، يقطع عليه الطريق بكل حيلة أو وسيلة ، حتى لا يشرق ضوؤه على الناس .

بل يصل الأمر بهؤلاء المبشرين الاستعماريين حدا يجعلهم فى أفريقا - مثلا - يقبلون ممن يبشرون فيهم أمورا تخالف عقيدة هؤلاء الاستعماريين ، كأن يدعوهم الى النصرانية ، وفى الوقت نفسه يبيحون لهم التزوج بأكثر من زوجة ، وبالطلاق ونحو ذلك .

* * *

وقد استطاع دهاقين الاستعمار في الغرب أن يسخروا كثيرين من أذنابهم وأتباعهم ـ باسم التبشير ـ فى أعمال الجاسوسية واثارة الفوضى ، وفى هدم القوميات الوطنية والاجتماعية والدينية ، وركز هؤلاء اهتماما خاصا فى تحريف العقليات العربية والاسلامية ، وكم حاولوا ضرب الاسلام عن طريق تظاهرهم كذبا بمناصرة العروبة ، وضرب العروبة عن طريق تظاهرهم الكاذب بالتودد الى الاسـلام وأهله ، وهم بارعون جدا فى اختيار البيئة التى تصلح لنفث السموم فيها ضد العروبة ، والبيئة التى تصلح لنفث السموم فيها ضد الاسلام .

وقد بلغ اللؤم الاستعمارى عند بعض الدول الغربية الاستعمارية حدا جعلها تسلك طرقا خبيثة وملتوية ومغرية فى وقت واحد ، للتغلغل بنزعاتها واتجاهاتها الخطيرة داخل أعماق البلاد التى تريد استبقاء سيطرتها عليها ، فتعمد هذه الدول الى أخذ اطفال من أبناء أفريقية وآسية مثلا ، وتربى هؤلاء الأطفال على هواها ، وترضعهم لبنها الفاسد ، وتنشىء منهم جنودا مخلصين للذين ربوهم وأنفقوا عليهم ، وتتخذ هذه التنشئة الطريق الدينى مسلكا لها ، وبذلك يغـرس الاستعمار جذوره الشريرة عن طريق التبشير .

ولو اقتصر أمر التبشير الغربى الاستعمارى على أماكن العبادة ، لقل الخطر وضعف الأثر ولكنه يسرى ويستشرى كالسرطان أو الطوفان ، فهو يتخذ مسالكه ومجالاته فى المعابد

والملاجىء ، والمستشفيات ، والأندية ، والجمعيات ، والمؤسسات الخيرية ، ومختلف المنظمات ، وكذلك المدارس والجامعات وأماكن التعليم والثقافة ، حتى قال بعض المبشرين هذه الجملة الخطيرة : « كان تاريخ الأعمال التبشيرية فى البلاد الاسلامية ـ الى حد كبير ـ تاريخا للتعليم الأجنبى » .

وكذلك تذرع هذا النشاط التبشيرى بالكتب والصحف والمجلات والنشرات والصور واللوحات والاذاعة والتليفزيون ، وباقى وسائل الاعلام ، وبذلك تعاظم الخطر ، وتضخم الضرر .

وقد يكون هناك مبشرون طيبون ، لهم نية حسنة فى بث التعاليم الدينية حسب اعتقادهم الفردى ، ولكن هذا لايمنع أن نفهم أن دول هؤلاء القليلين تبذل كل جهدها كى تسخر هؤلاء الطيبين فى أصلهم لأغراضها السياسية والاستعمارية ، وكم كانت ـ وما زالت ـ لهذه الدول حيل وأساليب وأحابيل لايقاع هؤلاء الطيبين فى فخاخها الناعمة ، ليصبحوا جنودا لأغراضها ، ولا يتضح ذلك الا بعد فوات الأوان .

وكم لهؤلاء المستعمرين المدمرين باسم التبشير من وسائل غير كريمة وغير سليمة فى تحقيق مآربهم ، مما لا يرتضيه رجل شريف ، ولا يرضى عنه انسان مؤمن ، فهناك الرشوة والهدايا ، وهناك التضليل والمخادعة ، وهناك التحريف والافتراء ، وهناك بث الشكوك والريب عن طريق الجدل ... الخ .

ونستطيع أن نقرر فى هدوء وثقة حقيقة لا مفر من الاعتراف بها ، وهى أن بلاد الاسلام لا تستطيع بحال من الأحوال أن تزعم لنفسها أنها قد تحررت تحررا حقيقيا كاملا مادامت فريسة لهذا اللون من التبشير الاستعمارى ، الخفى الذى يسىء استغلال اسم الدين لتحقيق مآربه الخبيثة ، واذا طال الأمد على هذا الاستغلال ، فان الأمة الاسلامية تفقد شخصيتها وصبغتها وحريتها ، مع أن أقدس واجباتها هو أن تحتفظ لنفسها بشخصيتها السوية وصبغتها الربانية : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

ومن هنا تلوح لأهل الغيرة من رجال الاسلام ملامح واجبهم وأعلام طريقهم ، اذ يلزمهم أن يقطعوا الطريق على الشر حتى لا يستفحل ، وأن يمكنوا للخير ، حتى لا يضيع بين أهل الباطل .

ان واجب هؤلاء يتكون من شقين ، فهو بلغة القدماء تخلية وتحلية ، وهو بلغة العصر تطهير وتعمير ، فلا بد أولا من قطع الطريق — فى عزم وحزم — على التبشير الاستعمارى المستغل للدين فى بث أخطاره وأضراره ، ولا بد ثانيا من بث أضواء الاسلام السمح الكريم بين التائهين عنها المحتاجين اليها .

والواقع أن مقاومة الحركات الاستعمارية المتسترة بالعناوين التبشيرية ليس واجبا اسلاميا فقط ، بل هو أيضا واجب عربى ، لأن العلاقة وثيقة عميقة بين العروبة

والاسلام ، ونحن نؤمن بأن العروبة وعاء الاسلام وأن الاسلام روح العروبة ، ونؤمن قبل هذا وبعده بقول سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « اذا ذل العرب ذل الاسلام » (١) .
ونؤمن كذلك بأن استشراء السرطان الاستعماري المستخفى وراء العنوان التبشيري يؤدى الى زعزعة الوازع القومى ، كما يزعزع الوازع الدينى .

وكذلك ينبغى لنا أن ندرك أن مقاومة هذا السرطان واجب انساني أيضا ، لأن هذا اللون من التبشير ينهض على الخداع والتضليل ، وهذا يتعارض مع حريات الناس الشخصية في الاعتقاد ، والقرآن الكريم هو الذى يؤكد شعار هذه الحرية حين يقول : « لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم . الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

واذا كنا نؤمن بواجبنا فى هذا الميدان ، ونريد أن نتقدم للأداء ، فنحن فى حاجة الى طائفة من الدعاة الذين يتحقق فيهم قول الله جل جلاله : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا

---

(١) كتاب « وسائل تقدم المسلمين » ص ١١٨ - ١٢٠ - طبعة سنة ١٩٥٩م .

قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » . وقوله : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » . وقوله : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

نحن فى حاجة الى دعاة يحسنون التذكر والتدبر القلبى والعملى لقول الله عز من قائل : « قل هذه سبيلى ، أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » . وقوله : « قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، اليه أدعو واليه مآب » . وقوله : « وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم » . وقوله : « قل انما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا » ... الخ .

وهؤلاء الدعاة الذين نتطلبهم ونرتجيهم لا بد من ان تكون لديهم الطاقة والمقدرة على تحقيق الأمرين الجليلين اللذين اتفقنا على وجوبهما ، وهما تطهير بلاد الاسلام من سموم هؤلاء الاستعماريين المبشرين ، ثم تعمير هذه البلاد بدعوة الحق والخير والعدل : دعوة الاسلام .

والداعية من هؤلاء الدعاة الاسلاميين ينبغى له طائفة من الأمور فيما يتصور الانسان ، وهذه الأمور هى :

١ — أن يكون فى متوسط العمر ، فلا يكون شابا ناشئا قليل التجربة ، ولا يكون قد بلغ أرذل العمر ، فمالت نفسه الى طلب الراحة والاكتفاء باقل مجهود .

٢ ـ أن يكون سليم البنية متمتعا بصحة ملائمة تمكنه من القيام بأعباء الدعوة والتبشير بالاسلام •

٣ ـ أن يكون سلوكه موافقا لتعاليم الاسلام وأحكامه وآدابه ، ليصلح أن يكون قدوة وأسوة لغيره •

٤ ـ أن يكون واسع الثقافة الدينية والمدنية بقدر المستطاع ، لأنه سيلقى فى طريق دعوته وتبشيره كثيرا من المشكلات التى تحتاج فى علاجها الى دراسة ومعرفة •

٥ ـ أن يجيد اللغة العربية التى يفهم عن طريقها لغة القرآن وتعاليم الاسلام من منابعها الأصلية ، وأن يجيد لغة البيئة التى سيبشر فيها بهدى الله تبارك وتعالى •

ومنذ أكثر من سبعين عاما ذكرت مجلة « المنار » فى مجلدها الثالث طائفة من الشروط التى يجب ان تتوافر فى الداعية الى الله والمبشر بدينه ، وخلاصة هذه الشروط ما يلى :

١ ـ العلم بلغة من يراد دعوتهم ومحاورتهم •

٢ ـ العلم بأخلاق المدعوين وعاداتهم وأهوائهم •

٣ ـ الوقوف على مذاهبهم وتقاليدهم الدينية والدنيوية •

٤ ـ القدرة على تبليغ الدعوة بطريقة مشوقة •

٥ ـ التلطف فى القول والرفق فى المعاملة •

٦ ـ تحلى القائم بالدعوة بما يدعو اليه

٧ ـ الصبر وسعة الصدر لتحمل أعباء الدعوة ٠

٨ ـ الأمل بالنجاح مهما عظمت المتاعب ٠

واذا كانت هذه الصفات وغيرها أمورا لازمة للداعية كفرد من القائمين بالتبشير بالاسلام ، فان هناك واجبات يلزم أن ينهض بها القائمون على أمر هذه المهمة كمجموع ، فلا بد ـ مثلا ـ من دراسة البيئة التى سيبشر فيها الدعاة ، ودراسة عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها وأوهامها وأساطيرها وخرافاتها ٠

ولا بد من دراسة الأساليب والوسائل والطرق التي سلكها المبشرون بغير الاسلام أو يسلكونها ، للانتفاع بهذه الدراسة من جهة ،ولمعرفة المداخل التى يمكن التأتى عن طريقها الى وسائل المقاومة لهذا التدمير الاستعمارى الخطير عن طريق التبشير بغير الاسلام فى بلاد الاسلام ٠ ولا بد من دراسة واسعة مفصلة لتاريخ انتشار الاسلام فى العالم منذ فجر الدعوة الذى انبثق على يد قائدها ورائدها محمد عليه الصلاة والسلام ، الى يوم الناس الحاضر ، لأن هذه الدراسة تبصرنا بوسائل وأساليب اتبعها اسلافنا ، وقد يكون منها ما يفيدنا اليوم ، ولأن هذه الدراسة سترينا بوضوح الجهود الضخمة المخلصة الدائبة التى بذلها اسلافنا بعزيمة ويقين فى سبيل التبشير بدين الله الحق ، ولا بد من دراسة الشبهات والمفتريات التى أثارها أو يثيرها أعداء الاسلام هنا وهناك ، وعلينا أن نعرف أسباب اثارتها ، ووسائل اذاعتها ، وأن

نعرف أيضا ــ وهذا أهم ــ طرق تفنيدها والقضاء عليهـــا بمنطق العصر ، وأسلوب العلم ، ووسائل الاقناع ٠

ولا بد في محيط هذه الدعوة من فقه اسلامى بصير لأمهات المسائل الدينية التى يتخذها الأعداء محلا للافتراء والتشكيك مثل : الطريقة التى انتشر بها الاسلام ــ الفتوح الاسلامية ــ تعدد الزوجات ــ الطلاق ــ الجزية ٠ ومثـــل بعض المسائل المتعلقة بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ٠

وينبغى أن يكون هناك تدرج فى الدعوة الى الاسلام ، وأن يكون البدء فى الدعوة بالأمور السهلة المشوقة ، وبالأمور التى يحتاج اليها الناس فى عالمهم المعاصر ، فهناك مثلا مبادىء الاسلام الرائعة ، التى أرسى قواعدها فيما يتعلق بالأخـوة الانسانية ، والزمالة البشرية والمساواة بين الناس ، وهذه المبادىء تعد بلسما شافيا أمام طغيان التفرقة العنصرية التى تتبجح فى أمريكا ونشهد صورا من ضراوتها فى افريقيـــة وغيرها ٠

ونحن نعرف من تعاليم الاسلام التيسير على الذين يدخلون الاسلام ، وهو يسميهم « المؤلفة قلوبهم » وهناك من الفقهـاء المعاصرين من يرى أن نصيب الزكاة المخصص للمؤلفة قلوبهم يمكن اعطاؤه للذين يشرح الله صدورهم الآن للاسلام من ابناء الشعوب الفقيرة أو المتخلفة ٠

وكذلك ينبغى الانتفاع فى مجال الدعـــوة التبشيرية بالرخص الموجودة في الدين ، لتكون نوعا من التيسير بين

ى طبع هؤلاء المدعوين على روح الاسلام ومبادىء الاسلام ٠
لرسول عليه الصلاة والسلام يقـول : « بشروا ولا تنفروا
يسروا ولا تعسروا » ٠

وهناك طائفة من الواجبات التى يلزم أن يقوم بها أبناء
سلام لتعاون معاونة كبيرة فى التبشير بالاسلام والدعوة
ه ، ومقاومة المتطاولين عليه ، ومنها مايلى :

العمل على نشر اللغة العربية بكل الوسائل ، لأن تعـلم
اللغة العربية أقوى مفتاح لأبواب الاتصال بالثقـافة
الاسلامية والمبادىء الاسلامية ٠

ـ التعجيل بطبع ترجمات لتفسير القرآن الكريم باللغـات
الحية ، ونشر نسخ هذه الترجمات على أوسع نطـاق
فى مختلف أرجاء العالم ٠ وكذلك التوسع فى نشـر
الكتب الاسلامية القويمة المترجمة الى اللغات الحيـة
كالانجليزية والفرنسية ، وأيضا الكتب المترجمـة الى
اللغات المحلية فى آسيا وأفريقية ٠

ـ انشاء معهد لتخريج الدعاة والمبشرين بالاسلام يعنى فيه
باعدادهم اعدادا اسلاميا وتبشيريا سليما ، ويجيـد
هؤلاء الدعاة اللغات المحلية الخاصة بالذين سيبشرون
بينهم ، كما يحيطون علما بما هناك من عادات وتقـاليد
ومعتقدات موروثة ، وينبغى أن يكون هذا المعهد عـلى
مستوى اسلامى لا على مستوى اقليمى ٠

٤ ـ انشاء منظمة للتبشير بالاسلام ، يكون لها فروع فى الأقطار الاسلامية ، وهذه المنظمة تشرف على معهد تخريج الدعاة من جهة ، وعلى تنظيم حركة التبشير الاسلامى من جهة أخرى .

٥ ـ اصدار مجلة اسلامية للتبشير بالاسلام ، وتكون هذه المجلة باللغة الانجليزية أو الفرنسية ، أو هما معا ، ولا بأس بأن ينشر بالعربية ما يهم القارىء العربى المسلم من موضوعات هذه المجلة .

٦ ـ اصدار مجلات اسلامية محلية فى الأقطار التى سيكون فيها التبشير الاسلامى ، على أن تكون كل مجلة من هذه المجلات بلغة القطر الذى ستوزع فيه .

٧ ـ تخصيص صندوق للدعوة والتبشير بالاسلام ، تشارك فيه كل دولة اسلامية بما يناسب طاقاتها وامكانياتها ، كما يشارك فيه أبناء الاسلام من شتى الجهات ، ويمكن استثمار حصيلة هذا الصندوق ، أو جانب من ماله ، باحدى طرق الاستثمار الجائزة شرعا ، وذلك لتمويل التبشير الاسلامى بصفة مستمرة .

٨ ـ وضع دراسة تفصيلية شاملة لحركات التبشير المختلفة الموجودة فى شتى أنحاء العالم ، ويمكن عن طريق هذه الدراسة معرفة الوسائل والأساليب المتبعة عند أهـل هذه الحركات ، وتحديد الموقف الذى ينبغى اتخاذه منها

مع التعرف الى ما يمكن استخدامه من أســـاليبهم فى التبشير بالاسلام .

وهذا يذكرنا بكتاب قيم عن التبشير وهو كتاب «التبشير والاستعمار فى البلاد العربية » للدكتــور مصطفى الخالدى والدكتور عمر فروخ ، ومن الخير أن يعاد طبع هذا الكتاب ، على أن يطبع منه قدر ضخم من النسخ ، ويعمم توزيعه فى أرجاء العالم الاسلامى ، وأن يترجم هذا الكتاب الى اللغات الأجنبية ، وينشر فى أرجاء العالم . وكذلك يمكن أن تطبــع معه الكتب الأخرى المماثلة لهذا الكتـــاب التى تبين اخطار التبشير واستغلال الاستعمار له .

٩ ـ نشر دراسة وافية شاملة لتاريخ الدعوة فى الاســـلام بحيث يدرس موضوع الدعوة ذاته ، وطرق تبليـــغ الدعوة خلال أربعة عشر قرنا ، وتاريخ المنظمـــات والهيئات والمؤسسات التى قامت خلال هذا التـــاريخ الطويل للتبشير بالاسلام .

١٠ـ ينبغى أن يكون التبشير بالاسلام بعيدا عن التدخل فى الشئون السياسية الخاصة بالدول والحـكومات ، وأن يرتفع عن معترك الاقليميات والعنصريات والقوميات والوطنيات والطائفيات والمذهبيات وما شاكل ذلك . ولذلك ينبغى أيضا أن تكون هناك معالم واضحة تحدد علاقات القائمين بالتبشير الاسلامى بحكومات وشعوب الأقطار التي يقومون فيها بواجبهم .

١١ ـ توحيد أو تنسيق مناهج تخريج الدعاة واعدادهم بين جميع الجامعات الاسلامية : فى مصر والسعودية وليبيا والسودان والمغرب ... الخ . حتى يكون هذا التنسيق معوانا على تحقيق التقارب المنشود بين علماء الاسلام ودعاته .

١٢ـ تنسيق العلاقة بين الجهود التى ستبذل فى حقل الدعوة الى الاسلام أو التبشير به والجهود التى تبذلها الجامعات الاسلامية القائمة : جامعة الأزهر ، جامعة البيضاء ، جامعة الرياض ، جامعة الخرطوم ، الخ . وذلك لكيلا تتعارض الجهود أو تتمزق فيعوق بعضها بعضا ، أو يهدمه .

١٣ـ الاستئناس والانتفاع بتجارب المبعوثين الذين سبق ارسالهم من جهة الأزهر الشريف أو غيره للقيام بالدعوة الاسلامية فى مختلف الأقطار الشرقية والغربية.

١٤ـ الانتفاع بجهود العلماء الذين تخرجوا فى قسم الدعوة والارشاد بجامعة الأزهر فى ظل قانون تطوير الأزهر وكذلك العلماء الذين تخرجوا حديثا فى أقسام أومعاهد تشبه القسم المذكور .

هذه خواطر منثورة حول موضوع واسع متشعب ، يحتاج الى تضافر القوى من أهل الرأى والحجا ، وحسبى هنا أن

أشير الى الطريق الطويل ، أو أثير الهمم والعزائم ، والله من وراء القصد شاهد وقائم .

وانى لأذكر أن السير توماس أرنولد قد قال في كتابه « الدعوة الى الاسلام » منذ أكثر من سبعين عاما ، وهو يتحدث عن سرعة انتشار الاسلام : « ويرجع انتشار هذا الدين في تلك الرقعة الفسيحة من الأرض الى أسباب شتى : اجتماعية وسياسية ودينية ، على أن هنالك عاملا من أقوى العـوامل الفعالة التى أدت الى هذه النتيجة العظيمة ، تلك هى الأعمال المطردة التى قام بها دعاة من المسلمين وقفوا حياتهم على الدعوة الى الاسلام ، متخذين من هدى الرسول مثلا اعلى وقـدوة صالحة » .

وبعد قليل يعود فيقول : « وهكذا كان الاسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة من الناحية النظرية والناحية التطبيقية ، وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها ، وكان النبى نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين الذين وفقوا الى ايجاد سبيل الى قلوب الكفار » .

ويعود مرة أخرى ليقول : « وهكذا حمل الاسلام منـذ البداية طابع الدين الذى يقوم على الدعوة ، ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم اليه ، وحثهم على الدخول فى زمـرة المؤمنين ، وكما كانت الحال فى مبدأ الأمر كذلك ظلت على هذا النحو الى اليوم » .

وانه لشرف للمسلم أن يصل سببه بموكب سيد الدعاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يكون فى زمرة أولئك الذين قال فيهم ربهم جل جلاله : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

« ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال : اننى من المسلمين » .

كتب صدرت من كتاب الجمهورية الدينى

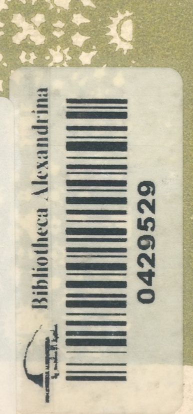
العدد	اسم الكتاب ومؤلفه	الشهر
١	ـ ارادة القتـــال	
	اللواء الركن/محمود شيت خطاب	نوفمبر ٦٩
	الدكتور/عبد الحليم محمود	»
٢	ـ نافذة على الاسلام	
	الدكتور/أحمد الشرباصى	ديسمبر ٦٩
٣	ـ شهداء العقيدة	
	مقدم/عطيه الدسوقى	ينـــاير ٧٠
٤	ـ الحج ومناسـكه	
	الشيخ/السـيد سابق	فبراير ٧٠
٥	ـ هجرة الرسول	
	الدكتور/محمد محمد الفحام	مارس ٧٠
٦	ـ رحلة الامام الشافعى للامام مالك	
	الاستاذ/على الجندى	ابريل ٧٠
٧	ـ مجاهد من فلسطين	
	الدكتور/على الصافى حسين	مـــايو ٧٠
٨	ـ الانسان المسلم	
	الدكتور/عبد الصبور شاهين	يونيه ٧٠
٩	ـ التصوف واقطابه	
	الشيخ/محمد محمد السطوحى	يوليه ٧٠
١٠	ـ القيـم الروحيـة	
	من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر	أغسطس ٧٠
١١	ـ الدولة العصرية	
	الاستاذ/محمود الشرقاوى	سبتمبر ٧٠

العدد	اسم الكتاب ومؤلفه	الشهر
١٢	القيم الروحية فى خطاب الرئيس من خطاب الرئيس جمال عبد الناصر	أكتوبر ٧٠
١٣	رفـق الصـائم الاستاذ/صلاح عزام ، الاستاذ/محمد نعيم	نوفمبر ٧٠
١٤	فى رحاب القـــرآن الدكتور/عبدالله محمود شحاته	ديسمبر ٧٠
١٥	أئمــة الحـديث الدكتور/الحسينى عبد المجيد هاشم	ينـاير ٧١
١٦	رفـق الحـاج الاستاذ/صلاح عزام	فبراير ٧١
١٧	خمسة من ابناء النبى الاستاذ/صلاح عزام	مارس ٧١
١٨	ما بعد الحياة الدنيا العميد/محمود مـراد	ابريل ٧١
١٩	شخصيات عسكرية الاستاذ/السيد فرج	مـايو ٧١
٢٠	أبو حامد سلامه الراضى الاستاذ/عبد الرحيم خطاب	يونيه ٧١
٢١	البرهان المؤيد الامام/أحمد الرفاعى	يوليه ٧١
[illegible]	صفحات خالدة من تاريخ الاسلام الاسـتاذ/أنور الجندى	أغسطس ٧١
٢٣	الاسلام ودولة الايمان الدكتور/حسين فوزى النجار	سبتمبر ٧١
٢٤	عقيدة ورجال المقدم/عطيه الدسوقى	أكتوبر ٧١
٢٥	الحسـبة الفقيه/ابن تيميه	نوفمبر ٧١

مطابع شركة الاعلانات الشرقية

هــذا الكتاب

هذا الكتاب يعالج فى فصــول ثلاثة طريق العودة الى الاسلام . وقد تناول المؤلف ، فى هذا الســبيل التربية الاسلامية والدين وشباب الجامعات .. والدعوة الى الاسلام .. مع كيف نختار الدعــاة .. ولم يقف المؤلف عند حد عرض المشاكل .. وانما ذكر اقتراحات عديدة .. للاخذ بها حتى نسير بحق فى طريق العودة الى الاسلام .



الثمن ٧ قروش